في
التنوير الإسلامي
«٦»

الانتماء الثقافي

تأليف
د. محمد عمارة

نهضة مصر

في التنوير الإسلامي ٦

الانتماء الثقافي

تأليف

د. محمد عمارة

اسم السلسلة: في التنوير الإسلامي.
اسم الكتاب: الانتماء الثقافي
تأليف: دكتور / محمد عمارة.
تاريخ النشر: اكتوبر ١٩٩٧.
رقم الإيداع: ٣٧٣٥ /١٩٩٧ .
الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0583 -7
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة – مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ – ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي – الفجالة – القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢
فاكس: ٥٩٠٢٣٩٥ /٠٢
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي – المهندسين – القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمات

« وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . وما اختار الله - تعالى - للمصائب إلا الرجال ، ولا يثبت لانهمار الغيوث إلا الجبال .

والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا في أعين الواقفين عند الظواهر .

والشدة إن صوتت بجلجلها ، وحلت بكلكلها ، ماذا عسى أن يكون ، مما تتخيله الظنون ؟ .

أليس الأمر يرجع إلى موت وحياة ؟ وهذان لايملكهما إلا الله ، وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل خلق المسبَّبات والأسباب .

﴿ ما أصاب من مُصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾[1] »[2] .

عبد الله التديم

---

(١) الحديد : ٢٢ .

(٢) عبد الله التديم . مجلة (الأستاذ) العدد الرابع عشر ص ٣١٨ والثاني والأربعون ص ١٠٣٢ . طبعة مصورة عن الأصل . القاهرة . دار كتبخانة للنشر والتوزيع سنة ١٩٨٤ م .

تعريف فى سطور

النديم.. هو :

● عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسى الحَسَنى (١٢٦١ ـ ١٣١٣هـ ـ ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦م) .

● كاتب وشاعر وخطيب ، وسياسى مناضل ، وعالم فى كثير من العلوم الإسلامية ، وراسخ القدم فى علوم العربية الفصحى ، ومبرز فى النظم والكتابة باللهجة العامية .

● ولد بالإسكندرية ، وحصّل ما حصّل من الثقافة والعلوم بالجُهد الذاتى والمناهج غير النظامية .

● احترف بعض المهن ، وشغل عددا من الوظائف الصغيرة والثانوية .

● أنشأ « الجمعية الخيرية الإسلامية » ـ فى الإسكندرية ـ للرعاية الاجتماعية ، ولتعليم أبناء الفقراء .

● تفتحت مواهبه ، ككاتب ، فى صحافة تيار الإحياء والتجديد ، الذى قادة جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) ، فكتب فى صحف (المحروسة) و (العصر الجديد) . .

● شارك فى قيادة الثورة العرابية (١٢٩٨ ـ ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م) وكان أبرز خطبائها المهيجين وألمع كتابها الثوريين ـ وأصدر إبان الثورة صحيفة (التنكيت والتبكيت) ـ رجب سنة ١٢٩٨هـ ـ ٦ يونية سنة ١٨٨١م ـ و (الطائف) ـ التى حلت محل (التنكيت والتبكيت) ـ ومثلت لسان حال الثورة .

● بعد هزيمة الثورة ، أمام التدخل العسكرى للاستعمار الإنجليزى ، واحتلال مصر ، طاردت السلطة الاستعمارية عبد الله النديم ، فاختفى - فى ذى القعدة سنة ١٢٩٩هـ سبتمبر سنة ١٨٨٢م - عشر سنوات ، كانت ملحمة من ملاحم الصمود والمعاناة . . وفيها ألف عشرين كتابا ، تشهد موضوعاتها - بل وعناوينها - على عمق تكوينه العلمى فى علوم الإسلام والعربية ، وعلى قدمه الراسخة فى مدرسة الإحياء والتجديد .

● وبعد القبض عليه - نتيجة وشاية - فى صفر سنة ١٣٠٩هـ سبتمبر ١٨٩١م - حُبس أياما ، ثم نفى من مصر ، فأقام بفلسطين ، حتى عفى عنه الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) فعاد إلى مصر سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٢م ، وأصدر مجلة (الأستاذ) - (١٣١٠هـ ١٨٩٢م ١٣١٠هـ ١٨٩٣م) .

● وبسبب مقالاته فى (الأستاذ) نفاه الإنجليز ، ثانية ، فذهب إلى فلسطين ، ثم إلى الآستانة ، فعمل فيها ، وصحب أستاذه جمال الدين الأفغانى ، حتى وافاه الأجل ، ودفن هناك .

● له من الآثار الفكرية والأدبية - غير الصحف التى أصدرها وحررها - كتب : (كان ويكون) و (كتاب الاحتفا فى الاختفا) و (السانحة فى علوم الفاتحة) و (الآلام واللذات فى اتصال الروح بالذات) و (وصرّف الوَضمَة[1] عن صرْف[2] العصمة) و(وفد البديع على باب الشفيع) و (خلاصة ما كان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان) و (الفرائد) و (طهارة القلوب والأفواه شرح لا إله إلا الله)

(١) الوَضْمَة - بفتح الواو وسكون الضاد - الجماعة من الناس .

(٢) الصَّرْف - بكسر الصاد وسكون الراء - الخالص من الشىء .

و (حلة الأنوار لمادح المختار) و(سيف الموحد في نحر الملحد) و(ترصيع الماس في خير الناس) و (مأتم البُكىَ على آل النبي) و(وطنية الشرق) و(النحلة في الرحلة) و(السكر النبات في تربية البنين والبنات) و(نحن وأنتم) و(إنقاذ البليد من ورطة التقليد) و(الدر النفيس في تاريخ بني إدريس) و(نيل الأرب في أخبار العرب) . .

كذلك ، له ديوانان لأشعاره . . وروايتان تمثيليتان عنوانهما (العرب) و(الوطن) . .

تمهيد

عن الموضوع.. والمنهاج

عندما يكون موضوع هذه الصفحات عن « الانتماء الثقافى للنديم » .. فإن أول ما يجب هو تحرير مضامين المصطلحات ..

● فالانتماء : هو الانتساب ، الذى يجسد خيوط الولاء التى تشد الإنسان المُنتَسب إلى ما ينتسب إليه ، فيرتبط به ، وينجذب إليه ، ويخلص له الولاء والانتماء ..

● والثقافى : نسبة إلى الثقافة - التى هى جماع المهارات التى تثمر عمران النفس الإنسانية وتسهم فى تهذيبها - تثقيفها - وارتقائها على درب المثل والمقاصد والنماذج التى صاغتها وتصوغها العقائد والفلسفات التى يؤمن بها هذا الإنسان .. فهى - الثقافة - مع «المدنية» - التى تمثل عمران « الواقع » - جماع الحضارة والعمران :

● والحديث عن الانتماء والانتساب والولاء الثقافى لعبد الله النديم ، لابد وأن يحدد موقع انتمائه الثقافى إزاء :

(أ) الواقد الثقافى الغربى - الذى فتحت أمامه الأبواب ، فى عصر النديم ، أكثر من ذى قبل .

(ب) وإزاء موروثنا الفكرى والثقافى ، وتيارات هذا الموروث ..

(جـ) وموقع النديم - ولاء وانتماء - من دوائر الانتماء الثقافى :

١ ـ الوطنية ـ التى كانت تمثلها مصر .

٢ ـ والدائرة الشرقية ـ والتى كانت تستخدم ، فى أدبيات ذلك العصر ، للدلالة على الدائرة الإسلامية ، وما فى أوطانها الشرقية من أجناس وأقوام ، ومن ملل وأديان .

٣ ـ والدائرة الجنسية ـ التى تحدد حدودها الأعراق .

٤ ـ والدائرة العثمانية ـ الجامعة لأقوام وملل شرقية متعددة ..

أين كانت ثقافة النديم من هذه الدوائر والمؤثرات والمرجعيات ؟؟

● ولقد اعتمدت هذه الدراسة واحدا فقط من الآثار الفكرية للنديم كى يكون الديوان الذى نكتشف فيه ومنه انتماءه الثقافى .. وهو مجلة (الأستاذ) ..

ولم يكن سبب الوقوف عند (الأستاذ) ، دون غيرها من صحف النديم وكتبه ، بسبب حجم الدراسة ـ الذى قد يقتضى الاقتصاد ـ غير المخل ـ فى المصادر وإنما كان الاكتفاء بهذا المصدر ـ مجلة (الأستاذ) ـ مؤسسا على العديد من الأسباب ..

١ ـ فمجلة (الأستاذ) هى آخر الأعمال الفكرية لعبد الله النديم ، وفيها تجسد الموقف الأخير الذى انتهت إليه وختمت به رحلته الثقافية ، التى حفلت بالمراحل والأطوار والمواقف والآراء ..

٢ ـ وفيها تمثلت مرحلة نضجه الفكرى ، حتى أنه يسمى أعداد ـ أجزاء ـ هذه المجلة ـ فى آخر مقالاته بآخر أعدادها ـ يسميها «أجزاء كتاب العبر ، وباب المبتدأ والخبر»[1] ؟! .

---

(١) (الأستاذ) العدد الثانى والأربعون ، ص ١٠٣١ .

٣ ـ وعلى صفحات هذه المجلة تناثرت خلاصات تأملاته فى سنوات اختفائه العشرة .. بل لقد كان نشر هذه المجلة لخلاصات موضوعات المؤلفات العشرين التى كتبها النديم فى فترة اختفائه واحدا من مقاصد إصدار هذه المجلة .. يعلن عن ذلك شقيقه «عبد الفتاح النديم الإدريسى» ، فى العدد الأول من (الأستاذ) فيقول : «والحامل لى على فتح هذه الجريدة[1] ، أنى رأيت شقيقى الفاضل السيد عبد الله أفندى النديم ، المنشئ الشهير ، قد مضى مدة اختفائه مشتغلا بوضع كتب لاتخلو من الفوائد .. فاستأذنته فى نشرها .. ومع كونى اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة ، فإنى وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه»[2] ..

ففى مجلة (الأستاذ) خلاصة مؤلفات النديم ، والآراء التى ختم بها مرحلة جهاده الفكرى ، بعد حقبة الاختفاء .

٤ ـ ويزكى هذا الاختيار لهذا المصدر ، أيضا ، ما تميزت به حقبة صدور (الأستاذ)من بعد عن ملابسات الهياج الفكرى وثقافة الشعارات وصياغات التعبئة الوطنية الحادة ، التى تميزت بها ـ وكان لابد أن تتميز بها ـ مرحلة الثورة العرابية ، ومقالات النديم أثناءها ..

٥ ـ كذلك ، كانت المواجهة ـ إبان صدور (الأستاذ) ـ مع «الآخر الثقافى» ، والوافد الفكرى الأوروبى ، حقيقة قائمة على أرض الواقع الثقافى ـ وليست مجرد احتمال ـ فكانت (الأستاذ) ميدانا من ميادين هذه المواجهة مع المنابر الثقافية والفكرية والسياسية التى مثلت « الآخر الثقافى » فى ذلك التاريخ ،

(١) كان عبد الله النديم « محرر الجريدة » وكان شقيقه «مدير الجريدة» .

(٢) (الأستاذ) العدد الأول ، ص ٣ .

وخاصة مصرى (المقتطف) و (المقطم) اللذين تمثلت فيهما حملة التبشير بمذاهب الغرب وبالسياسة الاستعمارية.

٦ - ثم إن حجم هذا المصدر - الأستاذ - كبير، فصفحاته تربو على الألف - ١٠٣٢ صفحة - الأمر الذى يجعلها بمادتها الثقافية وافية كل الوفاء بتحديد معالم الانتماء الثقافى لعبد الله النديم.

٧ - ونريد من أهمية هذا المصدر، مكانته فى ساحة الفكر والثقافة الشرقية - وليس فقط المصرية فى ذلك التاريخ - فهذه المجلة الأسبوعية، التى لم يزد عمر صدورها عن عشرة أشهر قد فاق انتشارها كل الصحافة المصرية فى عصرها - حيث كانت تلك الصحافة أو مجلات يومية كانت أو أسبوعية أو شهرية تلك النشريات؟[1] فعلى حين كان توزيع (الهلال) - الشهرى ٧٤٠ نسخة و (المقتطف) - الشهرى ١٣٠٠ نسخة و (المقطم) - اليومى - ١٤٥٥ نسخة. و (الأهرام) اليومى ٢٧٧٥ نسخة فإن توزيع مجلة (الأستاذ) قد بلغ ٢٨٤٠ نسخة متفوقا على سائر الصحافة المصرية فى ذلك التاريخ[1] فهى «ديوان» الانتماء الثقافى للنديم وهى أوسع دواوين الانتماء الثقافى مجتمعا - انتشارا فى تلك الحقبة المتميزة من حقب المواجهة بين ثقافتنا وبين الوافد الثقافى الأوروبى الأمر الذى يرشحها مصدرا وافيا لدراسة موضوع هذه الصفحات.

---

١ - صدر العدد الأول الثلاثاء أول صفر سنة ١٣١٠ هـ ٢٤ أغسطس ١٨٩٢م وصدر عددها الأخير - الثانى والأربعون - يوم الثلاثاء ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣١٠ هـ ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣م

كانت حياة النديم معركة في سبيل الاستقلال الوطني والتقدم الحضاري، تعددت فيها الآليات وتمايزت «نبرات الصوت»، دون أن تغيب المقصد عن هذا المفكر السياسي المناضل في لحظة من اللحظات.

وفي الحقبة التي صدرت فيها (الأستاذ) في ظل حكم الاحتلال الإنجليزي، وحكم اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧م) كان النديم يتحايل، كي يواصل جهاده، بالإعلان عن أنه لن يخوض في «السياسة»، بمعنى «الإدارة»، وأما في السياسة، من حيث هو، فإنه يدخل في موضوعها العلمي، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العلمي من الفروع السياسية» التي تدخل في صميم رسالة (الأستاذ).

ومن هذا الباب لم تدع هذه المجلة ميدانا من ميادين المواجهة مع الاستعمار الإنجليزي، ومع الوفد الثقافي الأوروبي الذي قامت به منابر ثقافية وإعلامية رعاها الاحتلال الإنجليزي في مصر يومئذ. لم تدع (الأستاذ) ميدانا من هذه الميادين إلا وخاضت فيه. ففي التصدي لسلطة الاحتلال المباشرة، استخدم النديم أسلوب «الرفق» لتحقيق الجلاء، وكتب يقول: «وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها. وفي الإشارة ما يغني عن الخبر، فاعتبروا يا أولي الألباب»[2]. أما في الفكر والثقافة، فلقد كانت أعداد المجلة صراعا بين الانتماء الثقافي للنديم وأمته وبين الوفد الغربي الذي يبشر به «الأجراء» و«العملاء»!..

(١) (الأستاذ) العدد الأول ص ٢، ٣

(٢) المصدر السابق، العدد الثاني والعشرون، ص ٥٢٨، ٥٢٩

ولهذه الملابسات، فإن حديث النديم عن الانتماء الثقافي للأمة، لم يكن لونا من ألوان «الترف الفكري»، وإنما كان سلاحا لمقاومة الاحتواء الاستعماري للأمة، وتحقيقا لشرط من شروط التقدم الحقيقي، الذي يخرج الأمة من مأزق «التخلف الموروث» و«الهيمنة الوافدة»..

والنديم، الذي كتب دراسة صافية عن أسباب تأخرنا وأسباب تقدم الغربيين، رغم أن «الخلق واحد»، وجعل عنوانها «لم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد»؟!! ولعلها أقدم الدراسات في هذا الموضوع، كان مهموما بقضية «التقدم»، باحثا عن عوامل التراجع الحضاري، وعن شروط النهضة، ولقد امتدت بصيرته إلى الجذور التاريخية لتراجعنا الحضاري، ورصد من عوامله الداخلية:

(أ) حكم التغلب وسلطان الاستبداد.

(ب) وتجزئة السلطة وتشرذم الأقاليم في ديار الإسلام.

(جـ) وتراجع سلطان العلماء وتأثير المؤسسات العلمية والتعليمية..

(د) وضيق السلاطين بالحرية الفكرية، وتضييقهم على أرباب الأفكار الحرة وأهل الاجتهاد والتجديد.

وهي أمراض التخلف الداخلي، التي طرأت على حياتنا بعد حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية، عندما «جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار، وجمعت العلماء من جميع الجهات، وترجمت كتب الأوائل الحكمية وغيرها، وفتحت بابا أغلقه

(١) المصدر السابق، العدد الخامس عشر، ص ٣٣٧، ٣٥٢

جهل قرون طويلة ثم انقضى دور الصحافة وتوحيد الكلمة وجاء وقت المتعلمين، فتحررت المملكة وتصدى للثائرين لقتل العلماء واحراق الكتب وهدم المدارس، فانطفأت انوار العلوم السرمدية وضيق ملوك الشرق على ارباب الاقلام»

وأبصر بعد دور التحديات الخارجية، التي جابهت المسيرة الحضارية لأمتنا، دورها في تنمية الأمراض الداخلية للتراجع الحضاري، وفي إطالة عمرها، والحيلولة دون الخلاص منها، وعلى هذه الجبهة رصد تحديات العروة النيرية والحروب الصليبية ودورهما في استدعاء ودعم سلطات التغلب والاستبداد، وفي تراجع دور العلم وسلطان العلماء. فبعد أن انبثت روح العلم في المسلمين، وظهر منهم علماء شريعة الغراء والآليات والرياضيات والطبيعيات وزينوا الدنيا بعلومهم وملئوها بآدابهم ومزقوا ثوب الجهالة والضلالة بسيف الدين والعلم جاءت فتنة التتار، فقهرت نير المسلمين وأوقفت التقدم العلمي، وأعظم منها فتنة الحروب الصليبية، التي غرست العداوة بين الملتين الإسلامية والمسيحية ولاشت القوة العلمية بالقوة العدوانية، فأخذ العلم في الانزواء ثم في التلاشي بموت أهله وإقفال مدارسه واحراق كتبه ونهبها»[1]

وبعد الرصد لأسباب التخلف التاريخي، الداخلي منها والخارجي، نبه النديم على أن التقدم إنما يمثل حركة شاملة للنهوض، لابد فيها من تضافر «الملوك والدول» و«العلماء وأرباب الأقلام والأفكار» و«الأغنياء وجمعيات وشركات التجارة والصناعة والزراعة».

---

(١) المصدر السابق العدد الخامس عشر ص ٣٤٨

٢ المصدر السابق العدد الحادي والثلاثون ص ٧٣٠

فإذا كان «التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة، بإعضاء الملوك عن وسائل التعليم، والتضييق على أرباب الأقلام والأفكار، وبعد الأغنياء عن الجمعيات، وبقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات»[1] فإن التقدم مشروط «بإطلاق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات تحت مراقبة، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصنعة، وتعميم المعارف في المدن والقرى، ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم، واجتماع كلمة الملوك والوزراء والأمم على السعي خلف التقدم، وبذلك يمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئا فشيئا حتى يصارعوها قوة وعلما».

فلم يكن النديم داعية لمطلق «التقدم» ولا لأي «تقدم»، وإنما هو هنا داعية «للتقدم الذي يوقف تيار أوروبا شيئا فشيئا، وذلك بمصارعتها قوة وعلما». ولهذه الحقيقة، التي ميزت التقدم الذي دعا إليه النديم والتي ميزت وتميز الانتماء الثقافي الذي أفاض في الحديث عنه، جاء حديثه عن ضرورة تحديد «المرجعية» والمبدأ الذي تبنى عليه الأمة أعمالها على درب التقدم، إخراجا لها وخروجا بها من الحيرة التي تعانيها آراء التعددية في مرجعيات ومبادئ التقدم والنهوض، فرجال الشرق «أخذوا يحاكون أوروبا، وسعوا في جمع كلمتهم وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب، ولكنهم، مع بقائهم على التفرق، وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم، لا تزال الأيام تقيمهم وتقعدهم، وهم حيارى بين المقعد والمقيم»[2].

(١) المصدر السابق، العدد الخامس عشر، ص ٣٥٢

(٢) المصدر السابق، العدد العشرون، ص ٤٦١، ٤٦٢

ولم يترك النديم قارئه في حيرة إزاء الانتماء الثقافي «للمرجعية والمبدأ» الذي كان منطلقا للتقدم الذي دعا إليه. فهو انتماء «للجامعة الشرقية» وثقافتها. تلك التي رآها إطارا جامعا يضم تحت جامعة الأكبر العديد من دوائر الانتماء الفرعي التي تتكامل في بناء نموذج ثقافي شرقي - متميز عن النموذج الثقافي الغربي - الذي صارعه النديم على صفحات مجلة «الأستاذ».

وقضية «التعددية» في دوائر الانتماء الثقافي تبرز في كتابات النديم عندما يعرف بنفسه. فهو «عبد الله النديم الإدريسي، الحسني، الأشعري، الشافعي، الخلوتي، الإسكندري»[1] ففيه تتعدد وتتكامل دوائر الانتساب والانتماء إلى الأسرة، وإلى آل البيت من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وإلى الأشعري في علم الكلام وأصول الدين، وإلى الشافعي في فقه الفروع، وإلى الخلوتية في طرق التصوف، وإلى الإسكندرية في الميلاد والنشأة.

وفي عناوين مؤلفات النديم نطالعنا هذه الحقيقة. ففيها كتاب عن «وطنية الشرق»، وكتاب «نحن وأنتم» عن تميز الشرق عن الغرب الأوروبي، وكتب عن التاريخ العربي والتراث الإسلامي، ومن بين كتبه العشرين عشرة خالصة للإسلاميات[2].

أما مجلة «الأستاذ»، التي وصف أعدادها بأنها «أجزاء كتاب العبر، وباب المبتدأ والخبر»[3]، والتي كانت منبرا للرابطة الشرقية، فإنه يصفها بأنها «جريدة إسلامية» تجاور «جرائد دينية

(١) المصدر السابق، العدد الحادي والأربعون، ص ٩٩٩

(٢) المصدر السابق، العدد الثاني والأربعون، ص ١٠٢٥، ١٠٢٦

(٣) المصدر السابق، العدد الثاني والأربعون، ص ١٠٣١

مسيحية [illegible] ، وتصاغ « جزئية الأجزاء » [illegible] بالانتماء الثقافي للغرب من مثل المقتطف والمقطم [1].

وإذا كان النديم قد بدأ حياته الفكرية والثقافية في صحافة [illegible] جامعة الإسلامية [illegible] وقاده جمال الدين الأفغاني وختم حياته بصحبة الأفغاني في الأستانة حيث شيعه الأفغاني إلى مثواه الأخير، فإنه قد أعلن في مجلة الأستاذ [illegible] تتمثل بهذا [illegible] الذي سعى إلى تجديد [illegible] مسلمين بتجديد دين الإسلام، فضلاً عن إعادته نشر بعض مقالات العروة الوثقى [illegible] حال ذلك التيار [2]، فإن حديثه عن الأفغاني وعن الإمام محمد عبده شاهد على هذا الانتماء، فهو يتحدث عن « السيد جمال الدين الأفغاني، الشهير الغني عن التعريف، الرجل الذي جرب الأمور، وساح الأقطار، وخالط الأمم، وداخل السياسيين، ودرس التاريخ الحاضر والماضي، وامتد باعه في العقليات، فأصبح أمة وحده بين ذوي الفضل، الأمر الذي دعا مولانا خليفة الأعظم لاستدعائه وإدخاله في [illegible] العلماء الخاص بمجلسه العالي، فقد أهلته المعارف والتجارب والمخالطة العامة لمسامرة الملوك والنظر في السياسات العالية، وهذا كله من فضل السيد الأعظم حفظه الله تعالى »[3].

فإذا كان السلطان وأمير المؤمنين عبد النديم هو « خليفة الأعظم »، فإن « السيد الأعظم » هو جمال الدين الأفغاني، وهو

---

١ المصدر السابق: العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٩١ ، ٧٩٢

٢ المصدر السابق: العدد الثامن والثلاثون، ص ٨٩٧ ـ ٩٠٥

(٣) المصدر السابق: العدد السادس والثلاثون، ص ٨٦٨ ، ٨٦٩

يكتب ذلك في ظل الاحتلال الإنجليزي، يوم كان الانتساب للأفغاني من كبائر المحرمات!.

أما تقدير النديم للإمام محمد عبده، وهو أبرز تلاميذ الأفغاني وأعظم مهندسي صرح التجديد الإسلامي في مدرسة الجامعة الإسلامية، وللكتاب والمفكرين الذين تكونت منهم مدرسة النهوض بالعربية والتجديد لأساليب التحرير بها، فإنه يتجلى من وصف النديم الذي يقول فيه: «أفضل الفضلاء، وإمام محراب الإنشاء، الأستاذ الشيخ محمد عبده، والجهابذة المتقنين والكتبة المقتدرين حسن بك حسني، وإبراهيم أفندي علي اللقاني، وإبراهيم أفندي الهلباوي، وحسن أفندي الشمسي، وأحمد أفندي سمير، ووفا أفندي محمد، وسعد أفندي زغلول، والطيب الذكر أديب أفندي إسحق، وغيرهم من الفضلاء الذين عرفتهم الأقلام بما ودعوها من أسرار الإنشاء وضروب التحرير».

وهي أوصاف شاهدة على موقع فكر أعلام هذه المدرسة من مدارس الإحياء والتجديد الإسلامي في الانتماء الثقافي لعبد الله النديم.

ففي إطار «الجامعة الإسلامية» - والتي كثيرا ما سميت «الجامعة الشرقية» و«الرابطة الشرقية» - كان الانتماء الثقافي للنديم.

وفي إطار هذا «الجامع الأكبر» و«الأول» و«الأسمى» رأى النديم تعدد وتكامل دوائر الانتماء الثقافي، إن على مستوى الفرد أو الوطن أو الجنس أو الأمة أو دولة الخلافة التي كانت تجمع، يومئذ، العديد من دوائر الانتماء

المقتدر السابق، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٨

تحدد الثقافة، التي تصوغ الوعي، للإنسان فرداً أو شعباً أو أمة، حدود دائرة محيط، التي يمنحها الولاء ويخصها بالانتماء. فهناك ثقافات تلف بانتماء صاحبها عند حدود القبيلة، وأخرى لا تجعل صاحبها يتجاوز جغرافية الوطن، وثالثة تقصر الانتماء والولاء على الجنس، بالمعنى العرقي والسلالي. ومن الثقافات ما تجعل الدائرة الحضارية هي محيط الانتماء. ومنها ثقافات أممية طمحت إلى حصر الانتماء في طبقة من الطبقات الاجتماعية على امتداد الإنسانية، أو إلغاء ما عدا الدائرة الإنسانية من دوائر الولاء والانتماء.

وفي كتابات عبد الله النديم تركيز واضح على أن دائرة انتمائه الثقافي هي الدائرة الشرقية، بالمعنى الحضاري، الذي يجعل تميزها نابعاً من مقابلتها للحضارة الغربية، التي كانت تقتحم أبواب الشرق وجباه أهله في ذلك التاريخ. وفي هذه الكتابات أيضاً ما يؤكد على اشتمال هذه الدائرة الشرقية، كجامع حضاري أكبر، على العديد من دوائر الانتماء الفرعية، التي لا تناقض بينها وبين هذا الانتماء إلى الدائرة الحضارية الشرقية.

والأمر الذي يؤكد أن «الشرق» في هذه الثقافة لم يكن معنى جغرافياً فحسب، وإنما كان دائرة حضارية، هو استخدام هذا المصطلح «الشرق» في أدبيات التيار الفكري الذي ينتمي إليه النديم كمرادف لمصطلح «الإسلام»، فالحضارة الشرقية والجامعة الشرقية، والرابطة الشرقية، والنهضة الشرقية، والشعوب الشرقية... إلخ... إلخ... كان المعني بها حضارة الإسلام

وجامعته ورابطته ونهضة شعوبه، والتي تضم ملاً وأقواماً هي جزء أصيل وعضوي من حضارة الإسلام، وإن ميزتها لغات أو معتقدات روحية لا تمثل بدائل لهذه الطوائف عن السمات الجامعة لحضارة الإسلام.

ولقد أشارت مجلة «العروة الوثقى» إلى ما جاء به «الجامعة الإسلامية» وهي تتحدث عن منهج هذا الكتاب وأهدافه، إلى هذه الحقيقة، حقيقة استخدام مصطلح «الجامعة الشرقية» بمعنى «الجامعة الإسلامية»، عندما قالت: «إنها ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان، وتأتي في فصولها على أهم ما له أثر في أحوال الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً». ثم أردفت قائلة: «ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً، وما رفعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم. فليس هذا من شأننا، ولا مما نميل إليه، ولا يبيحه ديننا، ولا تسامح به شريعتنا. وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم يعتصرون العباد في الأقطار التي غادرها الأجنبيون...»[1].

فالجامعة الشرقية هي الجامعة الأعلمية المسلمة، التي تتعرض لغزو الحضارة الغربية. ووصفها بالإسلامية «الجامعة الإسلامية» لا يغاير وصفها بالشرقية بحال من الأحوال.

* * *

---

[1] [illegible] الجامعة [illegible] ص ٣٤٤ - ٣٤٩ [illegible]
وتحقيق د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٨١م

و« الجامعة الشرقية » في ثقافة البلد، تضم أوطانا عدة، وأجناسا متعددة. لكن متاخمة أوطانها بعضها لبعض جعلتها «في حكم الوطن الواحد»، وعلة التدين بالإسلام على شعوبها قد أصبح رباطا جامعا كاد أن يذيب فواصل الأجناس وحواجزها ومكانة العربية التي هي لسان الدين والتراث قد جعلتها رباطا جامعا تعلو مكانته على غيرها من اللغات الشرقية. وكانت الدولة العثمانية الجامعة لأغلب أقاليم الشرق يومئذ هي الأخرى عامل توحيد في هذه الجامعة الشرقية. وتلك فضلا عن التناقض الحضاري، خطر السياسي اللذين مثلتهما الغزوة الغربية، مما جعل الجامعة الشرقية في ثقافة البلد «السد المحكم بين الشرق وبين المهيمن للوثبة على الشرقيين»!

«فالجامعة الشرقية»، إذاً، هي دائرة انتماء ثقافي وحضاري، أوسع من الدائرة العربية القومية، وأعم من الرابطة العثمانية الإدارية والسياسية. فهي دائرة حضارية تقف في مواجهة الحضارة الغربية الوثبة، بالاستعمار، على الشرق والشرقية والشرقيين.

ولقد كان لاستخدام بناء مصطلح «الشرقية»، أكثر من مصطلح «الإسلامية»، سبب موضوعي في الظرف السياسي الذي عاش فيه. فتهمة «التعصب الديني» كانت كما سيأتي في مقدمة الاتهامات الموجهة إلى الحركة الوطنية المصرية، وإلى البلد على وجه الخصوص. الأمر الذي جعل استخدام مصطلح «الجامعة الشرقية» أكثر شيوعا في الأدبيات التي أبدعها

فهو عندما يتحدث عن الروابط التي تربط المصريين أهل المشرق بالشام والمغرب عموماً، يختصر [illegible] هذه الروابط [illegible] أنهم جميعاً جزء من جامعة الشرقية، فيقول [illegible] بين المصريين والشاميين والمغرب رابطة [illegible] واسطة في [illegible] السلطة العثمانية [illegible] جامعة [illegible] والدين في معظمهم [illegible] والجنس في أغلبهم. والمناخ التي تصير مجموع في حكم الوطن الواحد وهم محتاجون إلى جامعة شرقية [illegible] محكمين [illegible] المتهيئين للوثبة عليهم»[1].

وهذه الجامعة الشرقية هي جامعة للأجناس والقوميات الإسلامية، من المغرب الأقصى إلى المشرق الأقصى، «ولا [illegible] لأهلها من الجنس والهلاس إلا المعرفة التركي حق العربي وفضله واعتراف العربي بمجد التركي وسيادته، واتفاق السوري مع المصري، وائتلاف الهندي باليمني، [illegible] في الفارسي، وارتباط التونسي بالمراكشي، وتوجيه نظر المجموع وهمته إلى ما يسمى شرقاً لا ما يسمى جنساً [illegible] حاجة الأعمى إلى من يقطع له الصحراء»[2].

والبديع يتحدث عن دور الإسلام في تكوين «جنس مستعرب» عند أوسع دائرة من «جنس العربي» الذي كان قبل [illegible] بالإسلام، فالتدبر بالإسلام قد أقام جوامع «وحدة الدين» و«الوطن» و«جامعة السياسية والإدارية» [illegible]. فامتزجت أجناس متعددة، بفعل هذه «الجوامع الإسلامية»، لتلد الأمة

---

(١) «الأستاذ» العدد [illegible] ص ٤٢٠

(٢) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤١٣

العربية على امتداد هذا الأفق الجديد والمديد ... فعند مجيء الدين الإسلامي وانتشاره في أفريقيا وآسيا وبعض أوروبا، امتزج العرب بالفرس والشاميين والمصريين والترك والغوط وبعض الطليانيين والإفرنج والسودان والحبشة والهنديين والويغور وغيرهم، وألف بين قلوبهم، فتوحدت كلمتهم، وصاهر بعضهم بعضا بجامعة الدين، فنتج جنس يحتج إلى الأصول بعرق التوليد، ميال للجامعة بوحدة الدين والوطن والتابعية، وبكرور الزمان استقل هذا الجنس وصار مستغربا يخالف أصوله، وقد عدلت عليه المغالطة الوطنية»[1].

وكانت مدارس التبشير الكنسية العربية، ومعها سلطات الاحتلال الاستعمارية، قد أخذت في الدعوة إلى «جامعة عربية» مبتتة الصلة بالجامعة الإسلامية، وذلك لاستبعاد دائرة الانتماء الجامعة لشعوب الشرق - وهي دائرة الإسلام - وعندما يرسل أحد قراء مجلة (الأستاذ) - وهي مسيحي سوري يقيم في مدينة «نظر سنوح» إلى النديم رسالة يمتدح سير المجلة على «الخطة الوطنية العربية»، يعلق النديم على هذه الرسالة نقضا ومصححا، فيؤكد أن سياسة (الأستاذ) هي «حفظ الوحدة الشرقية لا الجامعة العربية وحدها» فيقول: «ولو قال هذا الفاضل: إننا ننادي بحفظ الوحدة الشرقية، من عرب وعجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم على اختلاف الدين لأصاب الغرض، فإننا ننادي بها، لا بالجامعة العربية وحدها»[2]... فالجامعة العربية ليست نهاية دائرة الانتماء، وإنما هي واحدة من دوائر الانتماء التي تضمها الجامعة الشرقية.

---

(1) مصدر [illegible] العدد الثلاثون [illegible]

(2) مصدر [illegible] العدد الحادي والأربعون [illegible]

بل لقد وضع الندي بداية فصل أجناس جامعة الشرقية في معسكر «الأجزاء للأجنبي» حتى وإن ربطتهم بنا الأنساب والقرابات. فإذا رأيت مصريا أو سوريا أو تركيا أو هنديا أو فارسيا أو مغربيا توقع النفرة بينك وبين جنس شرقي، كأن تكون مصريا وترى شرقيا ينفرك من السوري أو التركي، فاعلم أنه أجنبي يشتغل لغيره، وأنه أجنبي وإن تصل بك نسب وقرابة..»[1].

وكانت الدولة العثمانية أعظم دول الشرق، والجامع الأكبر في إطار الجامعة الشرقية، والسياج الذي يتعلق به الشرقيون، إزاء الخطر الاستعماري الزاحف على ديار الإسلام. ومن هنا كان تأييد تيار الجامعة الشرقية للدولة العثمانية، مع إشادة بإصلاح حالها، والسعي إلى تجديد طاقاتها. كان ذلك موقفا ثابتا لهذا التيار. والندي يفصح عن سياسة مجلته فيقول: «لقد نادى الأستاذ بالجامعة العثمانية والعصبية الشرقية[2]. ونجد مجد الدولة العلية التي هي مرجع الكلمة الإسلامية، وإن نوع المسلمون في أقطار متباعدة ووجد بعضهم تحت سلطة دولة أخرى، فإنهم جميعا يحترمون مقام الخلافة العظمى، ويعترفون أن السلطة الأجنبية عارض. لا يحل رابطة عقدها توحيد الدين فيهم»[3].

فدولة الخلافة العثمانية قد ظلت حتى في خطاب الضعف، التي مكنت الاستعمار من اقتطاع العديد من الأقاليم الإسلامية، ظلت الحجة القانونية «ضد شرعية الاستعمار لهذه الأقاليم الإسلامية». والأمل الذي يتعلق به تيار الجامعة الإسلامية لجمع كلمة الشرق في مواجهة الاستعمار

---

(١) المصدر السابق، العدد السادس عشر، ص ٣٦١، ٣٦٢.

(٢) المصدر السابق، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٢.

(٣) المصدر السابق، العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٧٨، ٧٧٩.

وكذلك قرن تأييد نيار الجامعة الإسلامية للرابطة العثمانية وخلافتها، دائماً وأبداً، بالدعوة إلى إصلاح هذه الدولة وتجديد شبابها، وعلى درب الأفغاني ومحمد عبده، وكل أعلام هذا التيار، يسير النديم، الذي صاغ الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية شعراً، وجه له إلى السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م) قال فيه :

«تبرئ منك الذات عند ضم أمة ... ولكن حواليك القليل به عذر
فسُنَّ التساوي وحكم واعف واضطر ... ترى حُثَث الموتى يحركها النسر
فعندك من أهل السياسة سادة ... طبيعتهم حزم وحليتهم حذر
وقد تفعل الأقلام مالم تصل له ... مدافع في الهيجاء تصحبها النصر
فرَبِّ الأهالي بالإمام بحكمة ... وعلمهمُ علماً يطيب به الشكر
وعمِّر بلاداً بانتشار معارف ... وإصلاح أرض لا ترى أهلها الضر
ولا تعط شبراً للأجانب واحتفظ ... فما بعد ذا إلا التباع والكر
وأوقف مسير الالتزام لقمية ... تراهم رعاياً وجميع لهم مكر
وبث رجال العلم في كل قرية ... بتعليم دين عنده يقف الظفر
ووحد ضروب الحكم بين رعية ... يؤلفها التوحيد ما بقي الدهر
وأبعد جميع الأدعياء فإنهم ... يسيرون في طرق يُسَرُّ بها الغير»

فالرابطة العثمانية التي دعا النديم إلى إصلاحها، وتجديد شبابها، هي دائرة من دوائر الانتماء السياسي والإداري في إطار الجامعة الحضارية الشرقية التي ضمت وتضم أجناساً وأوطاناً ربطت بينها حضارة الإسلام .

(١) المصدر السابق، العدد الرابع والعشرون، ص ٥٦٦

وكذلك الجامع الوطني، ورابطة الوحدة الوطنية [illegible] هي واحدة من دوائر الانتماء الفرعية التي تضمها الجامعة الشرقية [illegible] ففي الوطن، الوطن الجماعة الوطنية، التي قد تمايز بينها الأصول العرقية والجنسية، والملل الدينية، لكن تجمعها الرابطة الوطنية ولقد دعا النديم إلى وطنية تجمع بين التعددية الدينية في الشعائر العبادية والشرائع الدينية وبين وحدة الدولة والقضاء والقانون الإسلامي، الذي مثل ويمثل جامعاً وطنياً وحضارياً لسائر الملل في ديار الإسلام على مر التاريخ [illegible] فحفظ الوحدة الوطنية في الأجناس القاطنة فيما يسمى وطناً، بما يكون لتوحيد القضاء والمعاملة، ويمكن الطوائف من إجراء عاداتهم في مجامعهم ومعابدهم وأعيادهم كل بما هو حق في معتقده، حميل في عادته، بلا حجر ولا تضييق [illegible] فالقانون الشرعي الإسلامي هو بالنسبة إلى كل [illegible] المستظلة بالدولة الإسلامية [illegible] من المسيحيين والموسويين [illegible] جامع وطني [illegible] فعلى اختلاف مذاهبهم وأجناسهم شملهم القانون الإسلامي العادل وحكم بأنهم مثلنا في الحقوق الوطنية، لهم ما لنا وعليهم ما علينا [illegible] فتوحدت الجامعة الوطنية بالقانون الشرعي الذي يعد ناقصة عاصياً لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومع اتصال الحروب مع الدولة الإسلامية والدول المسيحية لم يخل أحد على مستوطن ووطني ولو كان من الأمة المحاربة، حفظ للجامعة الوطنية التي قررت حرمتها النصوص الشرعية [illegible] فالقواعد الإسلامية تقضي على الآخذين بها بوجوب المحافظة على الوطني والمستوطن ومعاملته معاملة المثل [illegible] [2]

---

(١) المصدر السابق، العدد الثاني، ص ٢٥

(٢) المصدر السابق، العدد الرابع، ص ٧٣، ٧٤، ٧٧

وقد أفاض النديم في الحديث عن الوطنية المصرية، وهو قد
رأى «الوطنية المصرية» من النزعات العرقية والجنسية. فالمصريون هم
الذين استوطنوا مصر بصرف النظر عن أصولهم العرقية.
فنحن معاشر المصريين نفتخر بين الأمم بهذه الجامعة التي
لا تنحل عقدتها ولا تبدد نظامها. ونعني بالمصريين كل وطني من
العرب والترك والجركس. أما العرب فإنهم ساكنو الأقباط من مبدأ
الفتح الإسلامي إلى الآن فتوغلوا في الوطنية إلى أمد بعيد. وأما
الترك فإنهم وإن تأخروا عن العرب في الاستيطان ولكنهم هجروا
بلادهم، وتعاقبوا لإقامة والد عن والد حتى نسوا بلادهم فلو عاد
أحدهم إليها لكان أجنبيا فيها، بطول العهد. وأما الجركس، فإن من
ولد منهم في مصر فحكمه حكم العرب والترك، ومن ولد في غيرها
فقد جاءها صغيرا دون سن التمييز في الغالب، وربما لا يعرف اسم
بلده. فهم مصريون حقيقيون. والأقسام الثلاثة تجمعهم الرابطة
الدينية قبل الجامعة الوطنية فاعتبارنا الأجناس الثلاثة مع الأقباط
مصريين اعتبار صحيح حجته المشاهدة والعيان.[1]

وكما جمعت الوطنية المصرية كل الذين استوطنوا مصر
بصرف النظر عن أصولهم الجنسية، كذلك جمعت هذه الوطنية
بين مسيحييها والأغلبية المسلمة فيها. فمصر التي نحن فيها
بلاد إسلامية مختلطة بقليل من الأقباط الذين تحتاجهم الجنسية إلى
كثير ممن يولدون ممن أسلم من سابقيهم، وتدفعهم الوطنية إلى
التلاصق بالمجموع بحادثة الوطنية والألفة وأصول المعاشرة التي
قامت مقام اتحاد الجنسين. فهم إخوان الوطنية. فمصر مخصوصة
بجامعة وطنية لم يسمع بمثلها في الأقطار، والأمة الإسلامية مع

---

(1) المصدر السابق، العدد الرابع، ص ٧٨، ٧٩.

الطائفة القبطية كأهل بيت يتعاونون على المعاش ويتعاورون الأعمال، ويتقاسمون النظر في شئون البلاد، ويتعاضدون على حفظ الوطن من طوارئ العدوان...»[1].

فالوحدة الجنسية جامعة للأكثرية المسلمة - التي تولدت من أصلاب المصريين الذين اعتنقوا الإسلام مع القليل من الأقباط - الذين بقوا على مسيحيتهم. وهؤلاء المسيحيون الأقباط تجمعهم بكل الجماعة المسلمة في مصر - فضلا عن الجنسية - رابطة الوطنية - النابعة من اتحاد مصر وطنا للجميع - ورابطة الألفة وأصول المعاشرة، التي «قامت مقام الوحدة في الأصول الجنسية والعرقية».

ولأن العبث بالوحدة الوطنية لمصر والمصريين، كان هدفا من أهداف الاستعمار الإنجليزي وصحافة «الأجراء والعملاء»، التي تزينها مجلة (الأسياد)، وتصدى لها النديم. فلقد سعى الرجل إلى تحصين هذه الوحدة الوطنية المصرية من هذا العبث، بتطل متفردة «لم نسمع بمثلها في البلاد». ولتحقيق هذا المقصد الوطني النبيل دعا عبد الله النديم إلى إقامة «جمعية مصرية»، متميزة عن الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية - تكون مهمتها الحفاظ على الوحدة الوطنية، وتنمية أواصرها، وذلك «بالبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته». فكتب يقول: «ولكننا نحب أن نزداد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية، موضوعها البحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته، ولا نخرج في هذا كله عن الأدبيات، والمحافظة على ما بين

---

[1] المصدر السابق، العدد الثلاثون، ص ٧١١، والعدد الحادي والثلاثون، ص ٧٤٩، والعدد الرابع، ص ٧٥.

المصريين وغيرهم من روابط المحبة. فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية، ونحن لا جمعية لنا تبحث في الوطنية، فإن الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية القبطية لا تعلق لكل منهما بما نحن في صدده، فإنهما جمعت إعانة وتربية أيتام. ولا يشك عاقل في أن تكوين جمعية من الفريقين يفيدهما فوائد جمة، ويحول بينهما وبين النزعات الأجنبية. نريد جمعية تحفظ النظام الوطني بمساعيها الأدبية وما يترتب عليها من تطهير التواطؤ وتوحيد الكلمة»[1].

كتب النديم ذلك قبل نحو عقدين من النجاح الجزئي الذي أحرزه الاستعمار وعملاؤه في العبث بوحدة الوطنية المصرية وهو العبث الذي تصدى له وطوق مخططاته عقلاء المسلمين والمسيحيين. أولئك الذين دعا النديم إلى إقامة «جمعية مصرية» تضمهم «للبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته. والحفاظ على النظام الوطني والحيلولة بين النزعات الأجنبية وبين فرقاء الجامعة الوطنية المصرية»! وهي دعوة لازالت تنتظر التحقيق والتطبيق ؟!.

* * *

هكذا تبدت دوائر الانتماء في ثقافة النديم. جامعة شرقية تميزها الحضارة الإسلامية، تقوم، بالنسبة لأجناس الشرق وملله وأوطانه، «سدا محكما بين الشرق وبين المتهيئين للوثبة عليهم» بعبارة النديم. وهي جامع أكبر يحتضن الجوامع الفرعية، التي تتآزر وتتساند في إطار هذا الجامع الكبير.

---

(١) المصدر السابق. العدد الحادي والثلاثون. ص ٧٥٠

يعترف البدء بدور «الغرب» في إيقاظ «الشرق» لكن ليس بالمعنى الذي يتحدث عنه «الأجزاء» من رغبة الغرب في إيقاظ الشرق، أو سعي الشرقيين منذ الاحتكاك بالغرب إلى تبني النموذج الغربي وتقليده، وإنما بمعنى إيقاظ النقيض للنقيضة ودور العدو في تنبيهه على الثغرات ومكامن الخطر، و«فضل» النص في إيقاظ أصحاب البيت من سباتهم العميق[1]. فالغرب بعد الهجمة الاستعمارية على الشرق قد نهض بدور «المستفز» الذي استنفر الشرقيين للاستيقاظ[1]. «فلقد أثرت حركات أوروبا في معظم شيوخ هذا العصر وشبابه، فتحركت فيهم همم وغيرة وحمية لم يكن يظن فيهم لو لم يفتح أوروبا سيرهم الديني والدنيوي، فقاتلوا بين نهبها عن الظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفيس في حياة الدين والدعوة إليه بيت المرسلين وتكثير المعابد فتولدت فيهم روح المماثلة فأصبحوا يقولون وعدوا يفعلون...»[1].

لقد استفز الغرب الشرق، عندما فتح سيرنا الديني والدنيوي وعندما دعانا إلى التخلي عن ديننا في الوقت الذي كان يهجم علينا بإرساليات التبشير وبناء الكنائس والمدارس التي تسعى لتحويل أبنائنا مسلمين ونصارى عن دينهم، فكان أن تحركت الهمم والغيرة والحمية، بسبب هذا الاستفزاز الغربي، و«تولدت روح المماثلة»، لا بمعنى ما أراد الغرب، وتبلور اللحظة الشرقية تبرز من الشيوخ والشباب «أصبحوا يقولون وعدوا يفعلون»[1].

(١) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤١٩، ٤٢٠.

والنديم يُحدِّث تيار النقطة الشرقية عن مقومات الانتماء، وعن ثوابت النهوض التي لا يجوز التفريط فيها ولا التنازل عنها تقليداً للأوروبيين.. وهي ست مقومات:

١ - حفظ المظهر والوجاهة

٢ - وحفظ الثروة، من صناعة وتجارة.

٣ - وحفظ الوطنية، وحقوقها وواجبات أهلها

٤ - وحفظ الجنسية، بعدم التقليد والاتباع بحسبان الغير ومجاراته في أقواله وأفعاله

٥ - وحفظ اللغة، التي هي أداة الحفاظ على الأخلاق وحسن العادات والمألوفات.

٦ - وحفظ الدين، الذي يمثل حفظه الجامعة لحفظه كل مقومات الانتماء، من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة

وينبه النديم في حديثه عن هذه المقومات، على الثوابت منها، والتي لا يجوز تغييرها حتى [illegible] التغيير [illegible] والوطنية [illegible] أن ينظر في [illegible] عادته [illegible] كذلك [illegible] أو حسن عادته، وأنها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية أو الجنسية، أو اللغة أو الدين [illegible] عليها [illegible] لم تحسن في غير الخليط [illegible] مضرة [illegible] أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية [illegible] ما لا يعتقده الاعتقاد الديني والشعور الجنسي والغيرة الوطنية

فإن النقل من عادته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد سلم ذاته لمن انتقل بعادته بلا حرب، ونعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته وخصائص أمته بعد نسيانه ما هي عليه من العادات ومالها من الأخلاق»

فالتخلي عن مقومات الشخصية الحضارية، بتقليد الغير، هو «تسليم بلدات بلا حرب»[1] كما يقول النديم.

وإذا كان النديم قد نبه على إمكان تغيير العادات المضرة بالذات والوطن والهيئة الاجتماعية، فإنه قد اشترط أن لا يمس هذا التغيير ثوابت الهوية الحضارية «الاعتقاد الديني، والشعور الجنسي (القومي)، وغيرة الوطنية». كما نبه على محورية الدين في ثوابت هذه الهوية الحضارية، لأن الإنسان «إذا تهاون في أحوال دينه وفروعه فإن عليه التقاعد عن نصرة أهله، الجامعة لما تشتت من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة». فكأنما الحفاظ على الدين هو الجامع الحافظ لكل مقومات الانتماء. وذلك - بعبارة النديم - «تسري الجاذبية الدينية في الجسم سَرْي الماء في العود.. حتى ترى مقيماً في الشرق يتألم بمصاب دينيّة في الغرب، وليس بينه وبينه جامعة وطن أو جنس أو لغة». وإذا فقد الإنسان جامعة الدين «بتقليد الغير فقد استخدم نفسه لأفكار الغير، حتى لو اضطره لمقاتلة أبيه وأخيه معه لفعل، لاستقباحه ما هم عليه واستحسانه ما عليه الغير»[1].

حدد النديم هذه المقومات للهوية الحضارية في أول عدد من أعداد مجلة (الأستاذ)، وظل يلح عليها في كل الأعداد

(١) المصدر السابق، العدد الأول، ص ١٢ - ١٤

● فالدين الإسلامي «هو مرجع المجد وأصل الشرف»[1] و«هو أقوى دعائم العمران»[2] والسبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران «أيام كان الناس عاملين بأحكامه»[3] «وليس هناك حل متين تقاد به الأمم غير الدين»[4].

ولذلك، يتصدى النديم لمزاعم غلاة الأوروبيين الذين يزعمون أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، كاشفا عن دوافع التعصب الديني التي تدفعهم إلى هذه المزاعم. وفاضحا «الأجراء» و«العملاء» - من «الطائرين حول دهاة أوروبا»! الذين ينشرون بيننا بهذه المفتريات فيقول: «ومنهم القائلون إن الدين الإسلامي مانع من التقدم وأصحاب هذا القول كالببغاء، فقد قلدوا في هذا الوهم أوروباويا في قوله الذي طارت به الصحف[5] وفاتهم أن الشرق يمتلئ بأديان تغاير الإسلام، والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام. ومع ذلك فإن تقهقرهم أكثر من المسلمين، وحالهم أحط من المسلمين بدرجات...».

كما يفند النديم دعوى هذا الزعيم الأوروبي المتعصب، بأن الإسلام هو سبب تعصب المسلمين دينيا ضد الغربيين. «فدعوى هذا الأوروبي أن الإسلام سبب حركات الشرق ضد الغرب، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به»[6]. مدحوضة بالحروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى

(١) المصدر السابق، العدد الثاني والعشرون، ص ٥١٩
(٢) المصدر السابق، العدد الخامس والعشرون، ص ٥٩٣
(٣) المصدر السابق، العدد الخامس عشر، ص ٣٥٢
(٤) المصدر السابق، العدد السابع عشر، ص ٣٩٤
(٥) الإشارة إلى السياسي الاستعماري الإنجليزي وليم غلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨ م)

لان وكلما كثرت مدنية دولة أوروبية كثر تمثلها في آلات القتال والتدمير مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة لا يتحرك إلا دفاعاً عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية، ولا يحركه إلا فتنة أوروبية، ولا داعي لأوروبا في تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكي والتعصب الديني.

وإنما نشده تمسك هذا الأوروبي بدينه، كره أن يرى دينا غيره، وأحب أن يسمع صدى صوته في بلاده، ليميل النفوس إلى زحزحة عيور على الدين.

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته، فلم يبطش بها بمواطنيه ولا مدها إلى معاهدته، بل ولا حرك بها أعضاءه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه، ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم، بل خيّر من بينهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه، وهذه خصوصية له من بين الأديان.

«فلم يكن الإسلام، ولا الأديان الشرقية السبب في التأخر، كما يزعم كثير من الطائرين حول دهاة أوروبا، بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الدين عاملاً بأحكامه»[1].

وكما انتقد القديم دهاة أوروبا المتعصبين لدينهم ضد الإسلام انتقد كذلك المادّيين الأوروبيين الذين يرون «أن الأديان هي سبب التخاذل الحاصل في العالم، ولا سبيل لمنعه إلا تركها جملة وإعدامها من الوجود»[2]، ووجه حديثه إلى «الأجزاء» المقلدة

(الإسناد) العدد الخامس عشر، ص ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٢.

من أبناء أمتنا، الذين كانوا ينقلون هذه النظريات الأوروبية وينشرونها في بلادنا. «فهذا تقريب مقلد لهذه أوروبا، الذين أفسدوا كثيرا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام، مع أنهم فرضوا عدم صحة الأديان، وأنها وضعت نظامات في أيام الخشونة والجهالة، ولا لزوم لها الآن مع وجود الدول الوضعية، لكن من الواجب احترامها واعتبارها. فإن تأثير وعدها ووعيدها في النفوس لا يبلغه قانون. فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون، ولكنه لا يمكنه أن يفر من عقوبة الله. وما ساعد الملك على النظام وبث الأمن إلا القانون الديني. والدين هو الذي يحمل العسكري على بيع حياته. ولو علم أن لا بعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال. فإن أرغم قاتل مكرها. ولا يقال إن الشرف الوطني يلزمه باقتحام غمرات الموت. فإنه إذا علم أنه يقدم للموت ليفوز بملك أو لأمر يريده. ولا ثواب ولا نعيم، فإنه لا يبيع حياته بلذة غيره»[1]

وهكذا [illegible] عن الإسلام، وعن مطلق الدين والتدين، أمام الفكر الأوروبي الذي ينشره في بلادنا صحافة «الأجراء» و«المقلدين» هذه أوروبا، و«المطائرين حول هؤلاء الهدة»، سواء أكان هذا الفكر الأوروبي يعصب نظرياته ضد الإسلام، أم مادية رافضة لمطلق الدين.

والنديم الذي عاش في عصر «المسألة الشرقية»، والصراع الأوروبي مع الدولة العثمانية، قد أبصر مكانة الإسلام في هذا الصراع. فعداء أوروبا لهذه الدولة العثمانية كان منطلقه العداء

[1] [illegible] العدد الخامس عشر، ص ٣٣٩، ٣٤٠.

للإسلام ، الذي يحول بين العرب وبين تنصير المسلمين ، والذي يحمي الشرق من الاستسلام لهيمنة الغرب ونهبه واستغلاله «ولو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة ولكن المغايرة الدينية وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التخاصم»

ويوجه النديم قوارص الكلمات إلى تيار التقليد لأوروبا ، الذي احترفت صحافته ذم الدولة العثمانية ، فيقول : «وإننا نرى كثيرا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العثمانية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الحكام ، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزيمة ، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثماني عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان وكثير من اللغات ، والقبل متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبا أو يقرب منهم جنسا»[1]

فالنديم الذي سبق وأوردنا له الشواهد على دعوته لإصلاح الدولة العثمانية ، وتجديد شباب إدارتها ، هو الذي يسفه هنا دعاوى «المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا» ضد الدولة العثمانية ، لأنها دعاوى معادية لهذه الدولة ، بحساب الرصيد الاستعماري الأوروبي ، وليست دعوات للإصلاح تستهدف تقوية السياج العثماني حماية للشرق وحضارته في الصراع مع الأوروبيين كما كان حال وموقف النديم وتيار الجامعة الإسلامية إزاء العثمانية والعثمانيين ..

(١) المصدر السابق ـ العدد الثاني والعشرون ـ ص ٥١٣

هذا عن الدين والدين الإسلامي على وجه الخصوص كثابت من ثوابت الهوية الحضارية الشرقية فهو «أقوى دعائم العمران والسبب الوحيد في المدنية ومرجع المجد وأصل الشرف الذي تسري حادثته في الجسم سري الماء في العود»

● وذات المكانة التي أحلّها النديم للدين في ثوابت الهوية الحضارية، أحلّها للغة العربية «فاللسان العربي (عنده) هو لسان الدين، وترجمان الوطن واللغة العربية مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد، وإذا فقدت الأمة لغتها فقد فقدت الدين والتاريخ الوطني»[1]

وإذا كان النديم قد رأى في «الدين» و«الجنسية» و«الوطنية» ثوابت الهوية الحضارية التي لا يجوز المساس بها حتى ولو اقتضت «المنافع» هذا المساس فلقد رأى اللغة العربية ثابتا من هذه الثوابت لأنها «لسان الدين» و«ترجمان الوطن» و«عنوان الجامع للجنسية الحافظ له فالمحافظة على اللغة محافظة على الجنسية، بل وعلى الملك وما يشتمل عليه»، ولهذا لا تميل أي دولة لنقل التعاليم من لغتها إلى لغة أخرى مهما مست الحاجة إليها، ولا تعطى شهادة للتلميذ أدى الامتحان في جميع العلوم بغير لغته مهما كان تمكنه من اللغة الأجنبية عن لغته، وبهذه الوسيلة حفظت مقاصد الدول، وامتازت كل أمة بخصائصها التي حفظتها لها لغتها»[2]

فاللغة هي الوعاء الحافظ للخصائص التي تمتاز بها الأمة عن الأمم الأخرى وهي في حال لغتنا العربية، تزيد لأنها هي لسان الإسلام، الجامع الأكبر لكل مقومات الانتماء الحضاري

---

(١) المصدر السابق، العدد الخامس والعشرون، ص ٥٩٣ والعدد الثامن، ص ٧٩

(٢) المصدر السابق، العدد التاسع، ص ٢٠٤

ولأن هذه هي مكانة العربية من ثوابت الهوية الحضارية، فقد تكالبت عليها التحديات. وكان البدء واحداً من الذين تصدوا لهذه التحديات: «فلعلنا شريفة، التي يتكلم بها الآن (١٣١٠ هـ ١٨٩٢م) - أكثر من مائة مليون من الناس، يسعى كثير من الناس، المحبين للعالم أو لدانهم، في إماتة هذه اللغة وتحويل هذه الألسنة عن التكلم بها إلى التكلم بغيرها، ليفقد بفقدها المجد والشرف معاً».

وفي مقدمة التحديات اللغوية العربية التي تصدى لها قلم البدء:

١ - تحدي اللغة التركية، في الولايات العربية التي حكمها العثمانيون..

٢ - وتحدي اللغات الأوروبية الزاحفة على الشرق العربي في ركاب الاستعمار ومدارس التنصير

٣ - وتحدي اللغة العامية التي يتوسل بها الاستعمار وعملاؤه من الأجراء سبيلاً لإزاحة العربية من ثوابت الهوية الحضارية، تمهيداً لإزاحة الإسلام والقرآن والتراث، لتفقد الأمة عوامل استعصائها على التبعية والذوبان في حضارة الغزاة

ينبه البدء على دور التريك أجهزة الإدارة بالولايات العربية العثمانية، في تقهقر اللغة العربية. فقد «كان استعمال اللغة التركية في المخابرات الرسمية من أسباب تقهقر اللغة العربية ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية في تلك الفترة التي حكمت فيها الدولة العثمانية البلاد العربية»[٢]

---

١) المصدر السابق العدد الثامن ص ١٦٩

٢) المصدر السابق العدد الثامن ص ١٧٦

وتشيد التجربة مصر الحديثة، التي تعربت إدارتها، وتدور الأزهر، ومكانه القرآن، في استعادة العربية لعافيتها في هذه التجربة المصرية. «فلما تركت الأقلام التركية، وصارت المحررات الرسمية كلها عربية، تقدمت اللغة تقدما عاما، وبلغ ألوف من المتعلمين في الأزهر والمدارس. وكان يتقدم أهل الأزهر على أهل المدارس في الإنشاء سبب واحد هو حفظ الأزهريين للقرآن الكريم في الصغر، فذهن الواحد منهم محشو بمادة البلاغة وقاموس الفصاحة وأبدع أسلوب إنشائي».

ولذلك، فهو يدعو إلى تعريب إدارات الدولة العثمانية في الولايات العربية، وذلك «بتعليم أفراد من أبناء الترك والكرد والجركس باللغة العربية، ليكونوا مؤهلين لولاية الأقضية والولايات العربية في الشام والعراق واليمن والحجاز، فحياة اللغة العربية في بني الترك خصوصا وفي بني العرب عموما حياة للدولة من طريق معنوي»[2].

أما تحدي اللغات الأوروبية للغتنا العربية، فلقد نبه القديم على مسالكه المتعددة، ومنها تهجين العربية بالكلمات الأجنبية وجعل هذه اللغات الأجنبية هي لغة التعليم في بلادنا والدولية التي تجعلنا نتعلم لغات الأجانب لنتخاطب وإياهم بها في بلادنا، بدلا من أن نجعلهم يتعلمون لغتنا كضرورة من ضرورات تعاملهم معنا في أوطاننا، مع جعل تعلم اللغات الأجنبية سبيلا لترجمة ما لدى الآخرين من علوم يحتاج إليها

(١) المصدر السابق، العدد الثامن، ص ١٧٧، ١٧٨.
(٢) المصدر السابق، العدد الثامن، ص ١٨٣.

يعرض النديم لهذه التحديات اللغوية فيقول: «.. ولا يرجع باللغة القهقرى إلا أمران:

الأول: كثرة استراق الكلمات الأجنبية واستعمالها في مخاطباتنا الكتابية والخطابية.

والثاني: نقل التدريس من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية. فمتى حصل هذا في أية أمة فقد فقدت لغتها وتبعها الدين والتاريخ الوطني، فإن اللغة مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد، فيجب توحيد التعليم، لئلا يطلع الأبناء لأهم مصريون ولا أجانب، ويكونون من هذا الامتزاج العجيب لغة جديدة لا قاعدة لها ولا ضابط، ويعز على الآتي بعدنا أن يعرف دينه أو كتابه لاحتياجه إلى مترجم يترجم له العربية إذ ذاك..»[1]!

أما تصدي النديم لتحدي العامية للفصحى والتي تسميها اللغة الصحيحة، فقد يبدو غريبا على الذين اشتهر بينهم النديم «كأدباتي»، ناظم بالعامية، تفوق في هذا الفن على أساطينه ومحترفيه. ذلك أن الرجل كان يتوسل - في الصحف التي تصدرها - بفصول مكتوبة بالعامية - اللغة الدارجة - إلى الذين لا يقدرون على مطالعة الفصحى أو فهمها، ولا يرغبون في القراءة بها، وذلك ارتقاء بهم بواسطة السماع نحو القراءة بالفصحى وفهمها، وبلوغا إلى حيث يستغنى عن العامية كل الاستغناء. وهو يفصح عن منهجه هذا، وعن مقصده، وهو يتحدث عن موقف مجلته (الأستاذ) من هذا الأمر، فيقول: «إنها تشمل

(١) المصدر السابق، العدد الثامن، ص ١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣.

على فصل قصير باللغة الدارجة، لتحول به العامي الجاهل من كراهة سماع الكتب إلى محبتها، فيتجرّبه الأمر إلى سماع الكلام الصحيح وهناك لا يلزم كتابه غير الصحيح. فاللغة الصحيحة هي الجنة، لاستعمالها بين الخاص والعام من عقلاء الأمة، واللغة الدارجة هي الميتة، لعدم استعمالها في غير الضرورات التي تقتضيها الحيوان بلا لغة»[1].

ولأن هذا هو موقف النديم، مع الفصحى - الصحيحة - الجنة - لا مع العامية - الدارجة - الميتة، كان صراعه ضد دعاة إحلال العامية محل الفصحى موقفاً ثابتاً على مر حياته الفكرية والصحفية.

ففي يونيو سنة ١٨٨١م كتب في جريدته «التنكيت والتبكيت» مقالاً اتخذ له عنوان «دلالة عميقة في الدفاع عن العربية» وتنبيه على مكانتها في ثوابت الهوية الحضارية، وهو عنوان «إضاعة اللغة تسليم للذات»[1]. ويومئذ دارت معركة فكرية بين حراس العربية - النديم، ومعه أحمد أفندي سمير وإبراهيم أفندي الهلباوي، وبين واحد من خريجي مدارس التبصير والتغريب هو أمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ ١٨٢٨ - ١٨٩٧م) الذي استوطن مصر مع شقيقه شبلي شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧) منخرطين في تيار التبشير بالحضارة الغربية بديلاً للحضارة الإسلامية، من خلال المنابر الثقافية والإعلامية، كالمقتطف والمقطم، وجريدة الحقوق، التي أصدرها أمين شميل.

---

١) المصدر السابق، العدد العشرون، ص ٤٦٨، ٤٧١.

وفي تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، ومرحلة إصدار النديم مجلة «الأستاذ»، تجدد جهاده دفاعاً عن الفصحى الصحيحة الحية، ضد دعاة العامية الدارجة الميتة، بمناسبة زعم المهندس الإنجليزي المستر «وليم ولكوكس» (١٨٥٢ - ١٩٣٢) الدعوة إلى استبدال المصريين العامية بالفصحى. وعن هذه المعارك اللغوية، يحدثنا النديم فيقول: «لقد سبق وكتبنا في العدد الثاني من جريدة «التنكيت والتبكيت» فصلاً تحت عنوان «إضاعة اللغة تسلم للذات»، فعارضنا فيه الفاضل الكاتب أمين أفندي شميل برسالة تبادل الجدال معه بسببها أحمد أفندي سمير وإبراهيم أفندي الهلباوي. ولأن أنا دعوتي المستر وليم ولكوكس إلى مؤداها أن المصريين لا توجد فيهم قوة الاختراع، ولا مانع لهم إلا اللغة الصحيحة، وأنه إذا تحولت الأفكار وحتمت استعمال اللغة الدارجة في المخاطبات والتآليف العلمية والتدريس أمكن المصريين أن يخترعوا. فرجعنا إلى رسالة أمين أفندي شميل، وقلنا: ما أشبه الليلة بالبارحة!»

ثم كشف النديم عن مقاصد حقيقية من وراء الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى، لغة القرآن الكريم، إنها قطع صلة الأمة بالقرآن مصدر عقيدتها وشريعتها، وصنعة حضارتها. «فالعربية لها نزل القرآن الشريف، الذي هو الآية الكبرى والحجة العظمى لمعاشر المسلمين، فهو الداعي إلى حياة اللغة العربية الصحيحة، وهو المقصود لكل محارب للغة، ساع في إماتتها. وماذا يصنع بكتب التي تحل عن الحصر إذا تكلمنا باللغة الميتة العامية، أنحرقها أم نترجمها بالكلام الفارغ؟ وماذا لم تكتب إلا بكثير كتبهم العلمية وجرائدهم باللغة الدارجة عندهم

تعميمها بالقوة التي يريدون تعميمها في مصر؟ وهل ترى أن المصريين إذا قرءوا القرآن بالغة العامية عند استعمالها ونسيان غيرها أيرضى عنها المسلمون؟ أم يعدونهم منهم؟ وهم يعتقدون أن تغيير حرف قامة وتقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين؟ »[1]

فالدعوة إلى العامية [illegible] وسلخ للأمة عن دينها وقطيعة معرفية مع تراثها وتاريخها وهويتها الحضارية وعزل [illegible] عن الجسد الإسلامي الكبير!.

ومقصد آخر من مقاصد الداعين إلى العامية من الإنجليز والأجراء الساعين إلى إحلال الحضارة الغربية محل الحضارة الإسلامية هو تأييد التبعية للاستعمار في البلاد [illegible] أن تمييز اللغوي هو دافع من دوافع حركة التحرر من الاستعمار «وكم من أمم خضعت لأمم أعظم منها قوة وأشد منها بطشا وبقيت محافظة على لغتها فبعثتها إلى الاستقلال وعزة الملك [illegible] والفرس والبونان وأسبانيا وروسيا والبرتغال والبلغار ولو تركوا لغتهم واستعملوا لغة الحاكمة لماتت وتحسبوا بالجنسية المتغلبة»[2]

وإذا كانت هذه الأمم قد اعتصمت بلغتها [illegible] (جامع جنسي قومي) فإن العربية بالنسبة لأمتنا هي أكبر وأعظم من الجامع الجنسي والقومي [illegible] فالتهاون فيها [illegible] القرآن [illegible] أفصح لغة أجنبية [illegible] عن حكاية [illegible] على [illegible] وتضاعت للأمة العربية [illegible] فبقاء العربية الفصحى هو

(١) المصدر السابق العدد العشرون ص ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٦

(٢) المصدر السابق العدد العشرون ص ٤٦٩

بقاء الدين والجنس معا ... وحاجتنا الدينية إلى لغتنا أشد من حاجة الأمم غير المسلمة إلى لغاتها ، فإن الإنجيل لما ترجم تناولوه كما تناولوا الأصل ، والقرآن لو ترجم بلغة أخرى لعجزت الترجمة عن أداء مفهومه ومنطوقه ... »[1] ..

* * *

وفي التصدي لمزاعم عجز العربية عن أن تكون لغة العلم الحديث لم يقف النديم ، في دحض هذه المزاعم ، عند الاستشهاد بالتاريخ ، الذي نهضت فيه بلغة العلم القديم ، وإنما استشهد أيضا بتجربة مصر الحديثة ، على عهد محمد علي باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) والحقبة السابقة على فرض اللغات الأجنبية على مدارس مصر (١٨٩٢م) بقوة الاحتلال

« فهذه المدارس المصرية ، قرئت فيها العلوم القديمة والحديثة ، الأصلية والمترجمة ، ولم يفتها شيء مما كتب في أوروبا ، ولم يتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنساوية أو الإنكليزية في بعض العلوم إلا في هذه السنة - سنة ١٨٩٢م)

وما هو الموجب للتعليم مثل التاريخ والطب والهندسة والجغرافية باللغات الأجنبية ، والمتعلم سيُستخدم بين من لا يعرفون كلمة أجنبية ، وهم فلاحو مصر وعوامها ، والكتب العربية في هذه الفنون توجد أجمالا في المخازن ، فأي ضرورة تلجئنا لتركها وشراء غيرها بلغة أخرى ؟ ... إن نقل التعليم من لغة البلاد إلى لغة أجنبية هو نقل للتلميذ من الجنسية والدين معا» !

(١) المصدر السابق - العدد العشرون - ص ٤٧٠ ، ٤٧١

ثم نشأ النديم بانذار كل هذه الدعوات ، التي تمثل تحديات دينية وقومية للعربية ، فقال : «إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع ، بل مئات ألوف من دعاة أوروبا لاستعمال لغة تميت لغة القرآن ما وجدوا آذانا سامعة..» [1] !

ولم يكن النديم داعية للجهل باللغات الأجنبية ، وإنما كان داعية لإتقان العربية كي نستطيع أن ننتفع بما نتعلم من لغات أجنبية في الترجمة التي تطلعنا على ما نحتاج مما لدى الآخرين «فالغرض إنما هو تعريب اللغة الأجنبية بعبارة عربية ، وعكسه (أي الترجمة من العربية إلى غيرها) حتى تجتلب المنافع وتتبادل الفكر ، ولا ريب أن العاجز عن اللغة العربية لا يقدر على ذلك ، اللهم إلا بعبارة منسوخة المعنى خالية من الثمرة» [2] «ولو فرضنا وتعلمنا اللغات الأجنبية ، وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب علينا أن نحافظ على لغتنا العربية ونستعملها في معاملاتنا الخاصة بنا وبين أبنائنا وأهلينا وفي كتب ديننا وعلومنا الأصلية والفرعية ، لبقاء الدين والجنس ببقائها» [3]

* * *

ولم يقف جهاد النديم في سبيل العربية عند التصدي للتحديات المهددة بوجودها التركية والعامية واللغات الأجنبية العربية وإنما مد آفاق هذا الجهاد ليشمل الدعوة إلى النهوض بلغة القرآن الكريم ، وذلك يتفق باحتياجات النهضة الحديثة ، وتكون قادرة على مبارزة التحديات اللغوية ، والانتصار عليها

---

(1) المصدر السابق ، العدد العشرون ، ص ٤٧٣ - ٤٧٥

(2) المصدر السابق ، العدد الخامس والعشرون ، ص ٥٩٤

(3) المصدر السابق ، العدد العشرون ، ص ٤٧١

فهو يجتمع بالسيس مجمع اللغة العربية بمصر » (١٣١٠هـ ١٨٩٣م) برئاسة السيد توفيق البكري (١٢٨٧ ١٣٥١هـ ١٨٧٠ ١٩٣٢م) الذي سبق ودعا إلى إنشاء مرحوم عبد الله فكري ٢٥٠ ١٣٠٦هـ ١٨٣٤ ١٨٨٩م) وبشر إلى سابق دعوته هو إلى إنشاء (١٢٩٨هـ ١٨٨١م) بمقالة له نشرت في (التكيت والتكيت) تحت عنوان « صناعة اللغة العربية ».

ويسهم بدوره في إنشاء المجمع خمسة عشر عضوا من مصر وسبعة عشر عضوا من سائر الأقطار العربية. وقد نظم المجمع في مؤتمره الأول فجعله يضم ثلاثة أقسام تختص كل منها بفرع من فروع اللغة العربية. فقسم يختص بالمعاجم وقسم يختص بالأساليب وقسم يختص بالمصطلحات العلمية والفنية. وقسم للترجمة وقسم للنشر والصحافة. كما اقترح إنشاء مجلس للمجمع أطلق عليه اسم « مجلس الأمناء » يتألف من أعضاء المجمع العربية الذين يقيمون في القاهرة ليقوم بما يسمى بأعمال المجمع في الدورات التي لا ينعقد فيها المجمع. ثم

ويتوجه إلى « المجتمع اللغوي » برجاء وصي « وهو أن يبعد عن الدخول في السياسات ، وأن يحفظ الوصلة بينه وبين الأزهر المنير ، لعدم تعرضه لشيء مما هو من خصائص جامع وسماحة شيخه ، ولهذا يمكنه أن يستعين بأشياخه في كثير من مواضيعه العلمية ، فإن أساسه مبني على العلوم الأزهرية ، وأعضاؤه يكون معظمهم من الأزهريين الذين يقدرون على التصرف في العبارات بالاستنباط أو القياس » [1] .

هكذا دافع تنديماً عن العربية ، لغة القرآن ، وجامعة الجنس وثابت هوية الأمة الحضارية ، وامتد دفاعه عنها عبر مسيرته الفكرية ، منذ أن دافع في صحيفته الأولى ، شعر « صاغة لغة تسليم لبنان » ، وحتى المقالات الصافية التي دافع بها عنها في مجلة (الأستاذ) .

● ومع « الدين » و « اللغة » في جوامع الانتماء الثقافي والحضاري ، يأتي جامع « الوطنية » ، الذي يحفظ استقلال الأمة واستقلال الوطن عن الانقياد للغير والتبعية للآخرين ، ثبت أن جهل الوطنية وحقوقها وواجبات أهلها يسهل على الجاهل الانقياد للغير وتسليمه الوطن ، غرور الظاهر ، وجهلاً بالعواقب ، إذ لا يعلم من الوطنية إلا أنه ساكن بهذه الأرض ينتفع بالسكنى فيها انتفاع الوحش بالأودية والمغارات ، فلا يعرف تاريخ الحياة الوطنية ولا الأمم المؤسسة لها ولا شرف استقلال الاستيطان ولا مجد وقاية المأوى ، ولهذا يكون بين

(١) المصدر السابق ، العدد التاسع والعشرون ، ص ٦٧٣

يدى الغير بمنزلة أجنبى يستعمله فى مهنته ، وليس له إلا أجر أجير ومنزلة نزيل . . »

فالوطنية ليست سُكْنى فى بقعة جغرافية ، وإنما هى جامعة لشرف استقلال الوطن ، ومجد الأمة ، حتى لا تكون هذه الأمة إذا فقدت هذا الجامع فى أرضها بمنزلة الغريب والأجير والنزيل[1]

● وكذلك جاء فى عوامل وجوامع الانتماء عند النديم مع جامع « الجنسية » لأن التفريط فى الجنسية ، والتجنس بالجنسيات الأجنبية يجعل المنسلخ من جنسيته متخذا جنسية عدو ! . فإذا تجنس المرء بغير جنسيته بالتقليد واتباع محاسن الغير ومجاراته فى أقواله وأفعاله ، وقعت جنسيته عنده موقع العدو ، وعدم فوائدها التى يأتى بها اجتماع أفراد الجنس .

فالجنسية جامع من جوامع استقلال الذات الوطنية والحضارية بعضم الذات من « التقليد للغير واتباع محاسنه ، ومجاراته فى أقواله وأفعاله » ! .

● وإذا كنا نتحدث اليوم عن « الاقتصاد المستقل » و « التنمية المستقلة » كشرط من شروط « المشروع الحضارى المتميز » فلقد كان النديم علما من أعلام تيار الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية ، الذى ارتاد الدعوة إلى هذا الاستقلال الاقتصادى ، فى مواجهة الهيمنة الاقتصادية الغربية منذ بدايات المواجهة مع النهب الاقتصادى الغربى لثروات عالم الإسلام والكاتب الأمريكى

(١) المصدر السابق العدد الأول ص ١٣

«لوثروب ستودرد» في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» [illegible] عن نيل الجامعة الإسلامية، الذي تلوه وقاده جمال الدين الأفغاني [illegible] «غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية هي ثروة المسلمين للمسلمين، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يسترقونها وهي نقص اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية، وفوق جميع هذا هي تحطيم لواحد أوربة، تلك الواحد العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين، وذلك بعدم تحديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والحمارات، وسائر العقود التي ما دامت خارجة من يدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب»[1].

فنحن أمام برنامج للاستقلال الاقتصادي، تمثل قسمة من قسمات استقلال الهوية الحضارية للأمة، وسمة من سمات مشروع نهضتها المستقلة. وفي إطاره نقرأ ما كتبه البديع عن جناية التقليد للغرب والاستهلاك المصنوعات على اقتصاد الأمة وثروتها: «فلما حصل الاختلاط، وامتدت التجارة، واتسع نطاق الزراعة، وساكن الأجنبي الوطني، وتبادل الفريقان الزيارة، فتح الغربي اقتصاد الشرقي، وعده بقاء على الهمجية والتوحش، وحسّن له التوسع في المآكل والمشارب وآنيتها، وما قصد بذلك إلا تحويل ما بيده من النقود إلى بلاده، وإيجاده أخيرا»[2]. فبعد عقد

---

(1) حاضر العالم الإسلامي، مجلد ١، ص ٣٢٦، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م.

(2) (الأستاذ) العدد الثالث، ص ٥٣.

المعاهدات التجارية مع دول أوروبا، جيء بمصنوعاتها إلى مصر فهجم عليها الأهالي، وأقبلوا على البضائع الأجنبية وتركوا صنائعهم وصناعهم. ولا زال الأهالي يمتنون الصنائع شيئاً فشيئاً حتى صارت الملابس والفرش والأواني، وكل ما يلزم الإنسان من ضروريات الأثاث من صناعة الأجانب، وبهذا ماتت الصناعة موتاً [illegible] مع أنه يوجد بالمحلة الكبرى صناع يصنعون الأقمشة النظيفة المحتاج إليها [illegible] وأثاث مع إتقان الصنع وجودة القماش وجنس المصر لكن الناس مغرمون بمصنوع الأجنبي الذي لا يساوي شيئاً في جانب مصنوع البلاد. لقد أماتوا بهذا الإسراف الاقتصاد الشرقي [illegible] وأرادتهم لاستحضار الآلات والمطاعم والمشارب الجديدة [illegible] ورهنوا الأملاك والأطيان!..» (٣).

إنها التبعية الاقتصادية التي حملتها نزعة [illegible] للغرب [illegible] في أي [illegible] يجعل [illegible] العرب [illegible] «النافع الضروري» [illegible] فهو أخذنا من [illegible] لا [illegible] واقتصرنا على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا [illegible] لا [illegible] حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقي» (٤).

هكذا [illegible] الاستقلال الاقتصادي [illegible] على [illegible] الاستقلال [illegible]

---

(١) المصدر السابق العدد الثامن ص ١٨٦، ١٨٧
(٢) المصدر السابق العدد السابع والثلاثون ص ٨٩٤
(٣) المصدر السابق العدد الثالث ص ٥٥
(٤) المصدر السابق العدد الثالث ص ٥٦.

محاضر وإغراءات التقليد ومحاكاة ... وكأنه رحمه الله يتكلم عن مشكلاتنا ساعة كتابة هذه السطور!

* * *

● والبديع الذي كانت حياته «صيحة في سبيل الحرية للفرد والوطن والأمة والذي صارع قوى الاستبداد وهرب بحريته من حبل المشنقة وعانى من النفي والتغريب عن وطنه لم يخطر هذا العاشق للحرية بين مفهومها الإسلامي الذي ينتمي إليه ويركبه ويدعو لإشاعته وإقامة نظمه ومؤسساته وبين مفهومها الغربي القائم على الإباحة وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة، الذي رفضه ومحاسن إباحته الهيمنية إن ساعت في أوروبا، فهي عسر سائغة في عالم الإسلام، الذي ضبطت شريعته حقوق الناس بحقوق الله وحريات الناس بالأخلاق والعادات والقواعد الدينية.

ومن هذا الملمح من ملامح منظومة الانتماء الثقافي للبديع كتب الرجل فقال: «ولئن قيل إن الحرية تقضي بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة، قلنا إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية، ولئن كان ذلك سائغا في أوروبا فإن لكل أمة عادات وروابط دينية وسنية وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يجني ويغري بالجناية عليها بما ينتجه من الأحوال المحظورة عندها»[1].

---

(١) المصدر السابق، العدد التاسع عشر، ص ٤٣٩

وعندما تعرض النديم لتطبيقات المفهوم الغربي للحرية - مفهوم الإباحة وعدم التعرض لأحد في أموره الخاصة - على «حرية المرأة»، وما أثمرته تطبيقات هذا المفهوم من إباحة الزنى بالتراضي والاختيار، دون مراعاة للضوابط الشرعية، يرى النديم في ذلك «حرية مدنية ينفر منها البهيم، وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم، فقد اتفق المسلمون والنصارى واليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهن، وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه، فإطلاق الحرية في هذا الباب مذمومة، وما سمعنا بمثل هذا في الجاهلية الأولى»[1].

ولا يحسبن أحد أن موقف النديم هذا كان نابعا من عداء للمرأة، فنساء مصر قبل سنوات طويلة من حديث قاسم أمين (١٢٨٠-١٣٢٦هـ/١٨٦٣-١٩٠٨م) عن تحريرهن، عندما تطلعن إلى إصدار مجلة نسائية، قد وقع اختيارهن على عبد الله النديم، وعن هذا المشروع - لإصدار جريدة (المربي) الأسبوعية للمرأة والطفولة، كتب النديم يقول: «تقدمت لنا كتابة من ثلاث وعشرين سيدة يطلبن إنشاء جريدة تختص بهن، وهذا الذي حملني على إجابة طلبهن في نشر جريدة أسبوعية تسمى (المربي)، وسنشرك معنا بعض الأفاضل الأطباء لتحرير ما يختص بالأمراض والحوامل، وإنا نشكر السيدات اللاتي اقترحن هذا الاقتراح البديع، كما نثني عليهن في اختيار هذا الضعيف - (النديم) - لهذه الخدمة، وقد علمن ذلك بقولهن «إنه لا يقدر على تحرير جريدة للسيدات ولسان الأطفال إلا مثلك فلذلك رجوناك هذا الرجاء».

---

(١) المصدر السابق، العدد الثامن والعشرون، ص ٩١٢

ثم يستطرد النديم، فيدعو النساء إلى الإسهام في تحرير هذه المجلة بالأفكار والمقالات، فيقول: «وإني كذلك، أرجوهن أن يبعثن لي أفكارهن في المواضيع التي تطرأ عليهن، نشر الفضائل سيدات العصر، كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن، ولهن أن لا يصرح باسم واحدة منهن إلا من شاءت ذلك، والله تعالى يوفقنا لما فيه رضاه ونفع الأمة ذكرانا وإناثا».

وفي هذا الذي كتبه النديم بيان على أن النموذج الذي كان في فكره، بهذه النهضة النسائية، لم يكن النموذج الغربي الذي رأى في حريته وتحريره «حرية مدنية ينفر منها البهيم»[1]، وإنما كان نموذج الحرية والتحرير للمرأة الشرقية هو النموذج الشرقي الإسلامي في عصور ازدهار حضارتنا الإسلامية. فلقد كان النديم يريد - وفق عبارته - «نشر الفضائل سيدات العصر كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن ...».

ونقد النديم للمفاهيم والمضامين والتطبيقات الغربية في «الحرية الشخصية» وفي «حرية المرأة» لم يمنعه من طلب الاستفادة من الجوانب الإيجابية لمفاهيم الغرب وتطبيقاته للحرية في ميادين أخرى. فلقد دعا إلى النظر في تجارب الغرب في «التعددية الحزبية»، مع ضرورة قصر عضوية هذه الأحزاب على «الوطنيين»، وتطهيرها من دعاة التقليد والمحاكاة للأفكار الغربية، الطائرين خلف المحسنات الأوروبية، فهذه «الأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من الوطنيين، الذين يخافون أن تطأ خيل الغرباء قبور أجدادهم الحافظة لعظام المجد الوطني والشرف الملكي». فعلينا أن نبحث في

(١) المصدر السابق، العدد الرابع والثلاثون، ص ٨٠٤، ٨٠٥.

طرق أحزاب أوروبا وروابطهم، وكيفية سيرهم، وموجب استمرارهم على ما هم فيه. ولكن لكل حزب جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله، بحيث يلزم مشرب لا تتحول عنه، ولا تتلون بتلون المطامع. ولا يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها، فإن الجرائد مدارس الأفكار تحافظ على مبادئ حزبها، وتجاري الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة. ولا زد تركب الأحزاب والجرائد وأحدث كل ما يقال بالقبول من غير بحث في مضاره وما يحمله من الدسائس تحول مجرى سلبها الوطني إلى الأودية الأجنبية، ووقعت في شراب أوروبا وهي لا تشعر. ولكن مظهرة من ذوي الأفكار الفاسدة محفوظة من الطائرين خلف المحسنات الأوروبية.

فهو في الحريات الفردية والشخصية، يريد مفهوما متميزا عن المفهوم الغربي، مضبوطا بحدوده وحقوقه وأخلاقيات الأمة وعوائدها. وهو في تكوين الأحزاب وفي صحافتها يريد ضبط أفرقها بالمصالح الوطنية وتمييزات الانتماء الثقافي والخصوصية الحضارية، وذلك حتى لا توقعنا هذه الحريات في شراب أوروبا والأفكار الفاسدة للطائرين خلف المحسنات الأوروبية[1].

ومن موقع العاشق للحرية، [illegible] والاستبداد الشرقية، تلك التي حرمت الأمة ما ثمرات نظام الشورى، بل واضطهدت العقلاء والنبهاء خوفا على استبدادها، حتى جعلتهم عبرة أخافت بها الجمهور[1]. فلقد أخطأ الشرقيون طريق الشورى بسبب الجهالة التي عمت الأمم الشرقية فلم

(١) المصدر السابق، العدد العشرون، ص ٤٦٣-٤٦٥

يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهائهم، ولا يحبون كثرة العقلاء خوفاً من التعب الذي يحدثه كل منظر شرقي، وهو وهم لا حقيقة له، وبذا تراهم تبع في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى ينقص العمر طريق العقلاء والنبهاء فرار من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء...»[1].

وفي النظم التي سمحت بتأليف مجلس الشورى [illegible] التعويل على استشارة أرباب الأموال وأهل الوجاهة [illegible] غير نخبة العقلاء منهم ولا تمييز [illegible] من الأدباء [illegible] الذي ألفت فيه هذه النظم [illegible] من استشارة [illegible] الضعفاء [illegible] كانوا قد امتلئوا علماً وكسبوا [illegible]»

[illegible] يرغمون [illegible] السوق [illegible] دعا إلى الاقتداء بالغرب في [illegible] أخطاء [illegible] من الأصل [illegible] فإن قيل إن الشورى لا تنجح في الشرق [illegible] الأمر [illegible] في حين ترد هذه الدعوى [illegible] الشورى [illegible] يصححون الأغاليط [illegible] حتى [illegible] الفضلاء الأذكياء منهم [illegible] العلوم والفنون [illegible] التي [illegible] الشورى...»[2].

---

(1) المصدر السابق، العدد الخامس عشر، ص ٣٥١

(2) المصدر السابق، العدد الثالث والثلاثون، ص ٧٢٤، ٧٢٥

● كذلك دعا النديم إلى إحياء عاداتنا في التجمعات وفي الأعياد، وانتقد تقليد الغربيين، فلقد تميزت مناسبات اجتماعاتنا، تاريخنا، بأن خطب الحاوية لدراسة الأحوال وجمع الآراء وتنبيه الأمة على ما يجب لها من الضرورات. أما جعل الزيارة في الأعياد قاصرة على كل عام وأنتم بخير، أو الاقتصار على إرسال ورق الزيارة، وبطاقات التهنئة بالتوسطة تقليد للأوروبيين، فهو جهالة، وإعدام لثمرة العيد بالمرة.

● ولم يكن النديم متزمتاً في الموقف من الفنون، ومنها فن الغناء والسماع، لكنه كان داعية لمراعاة الخصوصية الشرقية التي ربطت الفنون «بالفضيلة والمزايا الجميلة» فدعا إلى إقامة أندية وطنية للغناء المصري، تكون «مجالس للسماع» خالية من الغوغاء وأم الخبائث (الخمر). فإن التغني بالشعر اللطيف الحاوي للمعاني الرقيقة المنبه لأفكار العامة للسعي خلف الفضيلة والمزايا الجميلة، مما يحرك الطباع للعمل، ويبعث في النفوس رغبة فيما تضمنه الشعر من مقاصد الشعراء الجميلة. وحبذا لو كان لنا مغنى مصري، خال من الخمور والمومسات والغوغاء، لا يدخله إلا أناس مشتركون فيه شهرياً أو سنوياً بتذاكر مخصوصة، برئاسة أشهر المغنين، كالمجيد المتقن أمير الأغاني عبده أفندي الحمولي وأصحابه الشيخ يوسف حفاجة ومحمد أفندي عثمان وأحمد أفندي الليثي وأمثالهم، ويشترط أن يكون لهذا المغنى مجلس ينظر فيما يُغنّى به من الأشعار والأدوار، بحيث يحجر على الأدوار السخيفة والضروب الخارجة عن حد الآداب، فلا يرخص للمغنين

---

(١) المصدر السابق، العدد الرابع والثلاثون، ص ٨٠٢، ٨٠٣.

إلا بما في سماعه تنشيط وفي كلماته معان تعجب العقلاء وبرضاها الفضلاء، كما يشترط أن يكون المعنى المصري تحت إدارة مصريين لا يشاركهم في إدارته أجنبي، ليكون وصفه بالمصري جاريا على حقيقته»[1]!

هكذا نظر البديع إلى الغناء باعتباره فنا وصفا جميلا يسهم في تميز هوية الأمة وخصوصية حضارتها، بل ودعا إلى جعله مؤسسة وطنية تنهض بدورها في مواجهة التحديات التي تواجه الانتماء والتحرر والنهوض!..

● وإن الإعجاب بتردد البديع عندما يرى اتساع فاقة بني الشمس فيها مقومات الانتماء الثقافي ومنطلقات النهوض الحضاري، حتى لقد نبه على دور «الآثار» والمعاديات [illegible] وحتى عظام الأسلاف ومقابرهم، في الانتماء الثقافي المتميز لتاريخه الحضاري المتميز، وحذر من محاولات الغرب أن ينبش ويسرق مع تاريخنا، عظام العظماء من الأسلاف والأجداد! فتحدث البديع إلى أبناء أمته قائلا ومحذرا: «عما قريب تنبش قبور آبائكم وأضرحة عبادكم وسادتكم، لتوجد تلك العظام البحرة إلى أوروبا حتى لا يكون هناك أثر لدى مجد من الشرقيين، فإن خفتم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدي تراب قبورهم، فإنك ترى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها في أوطانهم حتى يزورها الآتي ويقرأ تاريخهم العجيب»[2].

(١) المصدر السابق، العدد الثالث عشر، ص ٢٩٣، ٢٩٤.
(٢) المصدر السابق، العدد الثاني والعشرون، ص ٥٣١.

فالآثار والعاديات وأضرحة الأولياء ومقابر العظماء، شواهد على المجد التاريخي، وسلاح من أسلحة الانتماء الثقافي في مواجهة التحديات الغربية التي بلغت في الشراسة حد نبش القبور، وسرقة العظام النخرة، تجريد الأمتنا من أمجادها!

● كذلك وقف النديم في كتاباته عن تراث الأمة، الحامل لخصوصية انتمائها الثقافي - أمام مؤسستين من مؤسساتها العتيقة العريقة الموروثة: الأزهر والطرق الصوفية. ولقد تميزت وقفاته بنظرة تجديدية، تحافظ على العراقة وخصوصية الانتماء، مع التطلع للمستقبل الذي يستدعي تطورا من داخل النسق الفكري، يحافظ على ثوابت الهوية ويستجيب لدواعي المستجدات.

فهو يعلن أن «منكر فضل الأزهر كمنكر نور الشمس في اليوم الصائف» وعلماء الأزهر «هم أئمة الناس في السير إلى المدنية، وهم والملوك في رتبة الأبوة بالنسبة إلى الأمم، بل هم الآباء الذين يؤهلون الملوك للقيام بوظائفهم، فالرتبة العلمية هي الرتبة العليا في العالم الإنساني»[2].

وهو يلح على الحفاظ على استقلال الأزهر عن الحكومة والدولة، وخاصة بعد أن غدت الحكومة والدولة خاضعة لسلطان الاحتلال، ويدعو «ديوان الأوقاف» إلى عدم المساس باستقلال الأزهر، فيقول: «وأمدنا من ديوان الأوقاف معرفة استقلال الجامع الأزهر واحترام شيخه وعدم إدخاله في الملحقات التي تصيره فرعا وهو أصل لا يصح أن يلحق بغيره استتباعا، فإن تقلبات الأحوال

(١) المصدر السابق، العدد السادس والعشرون، ص ٦١٤

(٢) المصدر السابق، العدد السادس والعشرون، ص ٦٠٣

[illegible] في مثل هذا الاستنتاج. ولا يبقى الأزهر من تلاعب الأفكار به لاستقلاله تحت إدارة شيخ شيوخه [illegible] الاحتلال لأجل طويل، معاذ الله»[1]!

وهذا الأزهر [illegible] الذي هو أصل لا يصح [illegible] [illegible] وأهل علمائه [illegible] والعلوم التي تجعلهم [illegible] مع معارف [illegible] وكان [illegible] علماء الأزهر [illegible] في شئون الدولة [illegible] في شئون الدين [illegible] كل [illegible] [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible] ولا يبحث في مخترع [illegible] ومقترح يرد عليه [illegible] في [illegible] مثله في هذا [illegible] مع [illegible] مؤهلا للإفتاء والقضاء، وهاتان الوظيفتان أرقى وظائف [illegible] [illegible] كثيرا من [illegible] [illegible] العلماء عن مجالس الأمراء [illegible] [illegible] الأفكار [illegible] لا يعلمون [illegible] شيئا [illegible]

---

(١) المصدر السابق، العدد الثامن والثلاثون، ص ٩١٩، ٩٢٠.

(٢) المصدر السابق، العدد السادس والعشرون، ص ٦١١، ٦١٢.

وهذا الموقف التجديدي، الذي اتخذه القديم، من مؤسسات العلوم التراثية، والأزهر في طليعتها، كان تقدير القديم لمنهاج «دار العلوم»، الجامع بين الموروث وبين الجديد «فدار العلوم خرجت للمعارف أفاضل حازوا فضيلتي الأزهر المنير والمعارف البهية» جميعا.

* * *

وفي تحديد القديم لدوائر انتمائه الفرعية، بإطار جامع الإسلام، قال: إنه عبد الله القديم، الإدريسي، الحسني، الأشعري، الشافعي، الحلوتي، الإسكندري [1] [2] فذكر الطريقة الصوفية التي ينتمي إليها «الحلوتية» - واحدة من دوائره في الانتماء.

لكن ثقافة القديم الإسلامية كانت ثقافة العالم الذي يرى التصوف الحق هو طريق الأئمة الذين التزموا، في أخذ الدين والفكر الإسلامي، عن مصادرهما الحقة: الكتاب، والسنة، والإجماع والقياس. والذين رأوا التصوف سبيلا لتهذيب النفس والارتقاء بها على سلم الرياضات الروحية، ملتزمين في كل مراحل الطريق بأحكام الدين وفق قواعد أهل السنة في استنباط الأحكام. فطريق التصوف الحق، عند القديم، هو «الطريق المسلوك للقوم، المبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه والتهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم» [3]

---

(١) المصدر السابق، العدد الثاني، ص ٣٦

(٢) المصدر السابق، العدد الحادي والأربعون، ص ٩٩٩

(٣) المصدر السابق، العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٨٧

ومن هذا الموقع للتصوف الملتزم بالشريعة كان نقد البدع الفكرية ـ بل والكفرية ـ وللممارسات الخرافية التي التصقت بكثير من طرق الصوفية، والتي حسبت على التصوف زورا وبهتانا. فبعد أن حدد طريق التصوف الحق، استطرد فقال: «بينه وبين ركام الانحرافات والخرافات السائدة لدى كثير من المنتسبين للتصوف، فقال: «... وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود، واستبدال السنة بالبدعة، وترك الشرع لهوى النفس، والطامة الكبرى دعوى بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة، وضلاله العامة بما ينقله إليهم عن بعض الصوفية، مدعيا وصوله إليه من طريق الفتح أو الإلهام. فقد كثرت البدع والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر، إنهم لا عند البوذية من المجوس فإن لهم أقوالا تشبه أقوال القائلين بوحدة الوجود وهم لا يدرون معنى القول بالوحدة. وبه العلامة الشيخ جمال الدين الأفغاني، حيث أخبر السيد البكري، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، أن القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان، ودخل في العرب عند ترجمتهم كتبهم فهو دين متداخل في دين من غير شعور الآخذين به»[1]

وغير هذه «البدعة الفكرية ـ الكفرية» القول بوحدة الوجود والتي جعلت هؤلاء المبتدعين يتعبون بعبارات من مثل: «وما الكلب والخنزير إلا إلهنا»[1] و«أنا من أهوى ومن أهوى أنا»[2]، هناك الممارسات البدعية في الموالد، حتى لقد قال الإفرنج: «إنا كربلاء في السنة، ولكم في كل مولد كربلاء»[3]

---

(1) المصدر السابق: العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٨٧ والعدد الخامس والثلاثون، ص ٨٤١

(2) المصدر السابق: العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٨٨

(3) المصدر السابق: العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٨٩

يهاجم البديع كل ذلك، قائلا: «فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة السيئة، وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق شيوخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم؟ وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون. إنهم إن تمادوا في بهتانهم وافتراءهم على الله ورسوله اضطررنا لكتابة رسالة في عقيدتهم وفسادها، وأوردنا أقوال أهل السنة فيها وتكفيرهم القائلين بوحدة الوجود»[1].

لقد كان البناء الثقافي في الثقافة الدينية إلى الأشعرية في الأصول، وهي التي توسطت الإسلامية، الذي استقطب جمهور الأمة في تصورات الاعتقادات.

وإلى المذهب الشافعي في فقه الفروع، وهو الذي استقطب جماهير واسعة في مصر، بعد أن استوطنها الشافعي، محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ، ٧٦٧-٨٢٠م) وأبدع فيها مذهبا جديدا.

وإلى التصوف السني في طريق تهذيب النفس بالمجاهدات الروحية..

وكان في جميع دوائر هذا الانتماء الثقافي عقلا ناقدا، وفكرا مجددا، كواحد من علماء وأعلام مدرسة التجديد الديني والإحياء الإسلامي، مدرسة جامعة الإسلامية، والرابطة الشرقية، التي تبلورت من حول موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني.

---

(١) المصدر السابق، العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٨٦، ٧٨٨.

وفي مقابل هذا «العالم الثقافي» الذي انتمى البديع إلى دوائره ومكوناته ومنطلقاته ومثله ومعاييره عالم الإسلام والجامعة الشرقية، والذي اتخذ فيه موقعه، كواحد من تيار الإحياء والتجديد كان هناك «الآخر» السياسي والحضاري والثقافي الذي كانت حياة البديع ملحمة من ملاحم الصراع معه، والتقدم له، والكشف لأحابيله التي نصبها للشرق والشرقيين كان هناك الغرب الاستعماري وتبشيره الديني وغزوه القيمي والثقافي وكان هناك «الأجراء» و«العملاء» - من أبناء جلدتنا الذين اتخذوا موقع «التبعية» و«الأدوات» للاستعمار الغربي في بلادنا!

● فالغرب، كمشروع استعماري، قد وظفت دوله الأوروبية النظام الدولي والمعاهدات الدولية لحل تناقضاتها وتوحيد كلمتها في مواجهة الشرق وفي سبيل استعماره «فالمعاهدات الدولية اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق بها مهما تقلبت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحا واستعمارا»[1]

● والاستعمار الغربي يحاول أن يستر مقاصده في النهب الاقتصادي والاستبداد السياسي والاستعلاء العنصري والمسخ الثقافي والقيمي والتعصب الديني - بشعارات كاذبة عن «الإصلاح وبث المدنية» ذلك «أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية وقطع عروق الجهالة والخشونة من العالم وهي علل باطلة ودعاوى

(١) المصدر السابق العدد الخامس عشر ص ٣٤٦

كذبة تبعث على افترائها حب الاستبداد من أمم تدعي الحرية وهم لم يشتموا لها رائحة إلى الآن ... فهم يربون إنسانهم على عدوان مثله ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدي أمه، فيخرج منكرا على مثيله صورته ... مدعيا أن غيره وحشي الطبع همجي السر، وأن الإنسانية محصورة في حشو جلده[1] ... منكرين وحدة الإنسانية، كرابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا ...»[2]!

ولقد فضحتهم بمساعيهم الاستعمارية في بلادنا ... فانتهت الاقتصادية والاستبداد السياسي «أصبح الأجنبي الحقير في بلادنا أعز من الثور والبشر والبارون في بلاده[3] ... ويتلو بين الأجنبية والحاكم الأجنبية، التي لا تدري الفلاح شيئا من أصولها» ... جردوا هذا الفلاح من تملكاته.

● والعرب - كدوائر حكم .. وجماهير غفيرة - قد استعان على تبرير اجتياحه لديارنا واحتقاره لثقافتنا، بتشويه صورة دينه الإسلامي في وعي أبنائه ... فهم يزعمون «أن جماعة من العرب دعتهم الفاقة إلى اتخاذ قطع الطرق وسيلة لثرواتهم، فاتخذوا لهم اسم محمد بن عبد الله، وساروا تحت رايته، وأخذوا في مهاجمة الأمم ونهب البلاد، فلما علت كلمتهم وسرى صوتهم في الأقطار، ادعى قائدهم أنه صاحب شريعة، وأخذ يضع لهم تعاليم دينية جمعهم عليها ..»[5]!

---

١) المصدر السابق العدد الثاني والعشرون ص ٤٠٥ والعدد الرابع والثلاثون ص ٧٩٤.
٢) المصدر السابق العدد الثامن عشر ص ٤٢١
٣) المصدر السابق العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٤٦
٤) المصدر السابق العدد الثامن عشر ص ٤١٠
٥) المصدر السابق العدد الثامن عشر، ص ٤٢٢

● والغزوة الغربية للبلاد الشرقية، لا تقف عند احتلال الأرض ونهب الثروة، وإنما هي مع ذلك غزو للقيم والأخلاق تستهدف حل عروة الدين الإسلامي، التي هي أوثق العرى في جامعتنا الشرقية، وإحلال المدنية البهيمية محل المدنية الشرقية الملتزمة بمثل الدين ومعاييره!..

يرى البديع ذلك، فيكتب تحت عنوان (العدوى الأوروبية للبلاد الشرقية) فيقول: «إن من قابل بين بلاد الشرق قبل استيطان الأوروبيين بها وقبل استيلاء بعض دول أوروبا على بعضها وبين حالتها الراهنة، من حيث الآداب العامة، رأى فرقاً كبيراً وتبايناً عظيماً. فإن الواقف على عادات الشرقيين وقواعد أدبائهم يعلم أن المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين يرون تحريم الزنا من الجهة الشرعية وقبحه من الجهة العقلية، ويرون صيانة الأعراض من الواجبات. وكانت الحكومات الشرقية محافظة على الآداب الشرعية وحقوق الشخصية. فكانت الأعراض مصونة والرجال آمنون على بيوتهم، غابوا أو حضروا. وكان الرجال المسلمون أبعد خلق الله عن الخمر، والإسرائيليون لا يشربونها إلا في الأعياد، والمسيحيون لا يشربون إلا القليل في أوقات مخصوصة. أما نساء الأقسام الثلاثة، فإنها ما كانت تذوقها، ولا كان الرجال يدخلونها عليهن، لعلمهم أن ما بعد سكر المرأة إلا الافتضاح والميل إلى البغاء. فلما تداخل الأوروبيون في البلاد الشرقية بالتجارة والتعليم، فسدوا أخلاق الرجال والنساء بما أدخلوه فيهم من مسمى مدنيتهم التي هي رجوع إلى البهيمية. وكنا نتألم نحن معاشر المصريين من هذا العيب الفاضح، ظناً منا أن ما أدخله الإفرنج من المصائب لم يصب به غيرنا. ولكننا علمنا

من أحوال تونس ما هو أقبح وأشنع ، فعلمنا أن ذلك أمر مقصود لكن دولة أوروبية حلت بلاد شرقية، حل عروة الدين التي هي أوثق العرى في الجامعة العصبية والالتئام الوطني . لقد اسود وجه المجد بما نسفه أحلام الشرقيين ويلحقهم بالقرود في التقليد الأعمى»[1] !

● ومع تغيير القيم والعادات ، وحل عروة الدين التي هي أوثق عرى الجامعة العصبية والالتئام الوطني ، استهدفت هذه العروة العربية إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها ، وإحلال النزعة الوضعية والفلسفة المادية محل التصورات الإيمانية في تفسير الكون والحياة والتاريخ ، وإحلال اللغة الأجنبية محل العربية . «إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية ، وينادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ، ثم تأخذ في تغيير الأنس شيئا فشيئا . كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس ، حيث سبب لهم قانونا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي ، بل نسخ مقابلها من أحكامه ، ونشرته في البلاد ، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم ، ولما لم تجد معارضا أخذت تحول كثيرا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام ، توسيعا لنطاق النسخ الديني . ولم تلبث أن حاربتها وأخذت بقانون يشبهه . ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وألزمتهم بتعلم لغتها . والأخذ بالطبيعيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين ، لئلا يعلموا أنهم يغايرونهم دينا فيثورون عليهم . ولإعدام اللغات الوطنية التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية»[2] !

---

(١) المصدر السابق ، العدد الرابع والثلاثون ، ص ٧٧٩ ، ٧٨٢ ، ٧٨٤
(٢) المصدر السابق ، العدد الثاني والعشرون ، ص ٥١٤ ، ٥١٥

ولقد أفاض النديم في فضح مقاصد الغرب الاستعماري كنقيض حضاري وثقافي وقيمي ... بل ولم تمنعه القيود التي فرضتها سلطات الاحتلال على اشتغاله بالسياسة كتدبير يومي للدولة من الدعوة إلى إخلاء جيوش الاحتلال، وإن يكن قد اتخذ الطريق السلمي لتحقيق ذلك «فالرفق يستخرج الأسنان الحية من وكرها»[1]!

● ومع ذلك، فإن النديم لم يغفل الوجه الآخر للحضارة الغربية: «فكم للغرب من آثار كانت زينة للشرق، وزيادة في قوته العاملة والمدبرة»[2]. ومن علماء الغرب من أنصف الإسلام «وأثبت انفراده من بين الأديان بتعليم أساليب الحرية وأفانين الفضائل»[3].

بل وكان النديم داعية إلى معرفة ما لدى الآخر بدلا من الرفض لأنه آت من الآخر. ثم عرض هذا الوافد على أصولنا ومعايير اعتقادنا ومنطلقات انتمائنا الثقافي وخصوصيتنا الحضارية. وبعد هذه الرؤية المقارنة والموقف النقدي يكون الرفض أو القبول. ذلك «أن الذي نراه مغايرا للدين، لم تظهر لنا مغايرته إلا لعدم الاشتغال به ووصوله إلينا على يد من يخالفنا دينا، فلو اشتغلنا به لأمكننا أن نرده إلى أصولنا بالتأويل أو بالقياس، أو ندافع عن أصولنا بلسان المقاصد فيه. وأما رده دفعة، بلا نظر ولا استدلال، فإنه تعصب

---

(١) المصدر السابق، العدد الثاني والعشرون، ص ٥٢٨

(٢) المصدر السابق، العدد الثاني، ص ١٤١

(٣) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤٢٣، والإشارة للعالم الفرنساوي «مسديو» في كتابه «التمدن الإسلامي»

للجهل ، لا للعلم والدين ، فإننا لا يمكننا أن نقيم حجة على فساده ونحن لم نشتغل به»[1] .

ذلك هو منهاج النديم في رؤية الآخر الحضاري والثقافي ، العلم بما لديه ، وجعل أصول اعتقادنا ومعايير انتمائنا الثقافي هي القاضي فيما نأخذ وفيما ندع من بضاعة الآخرين ، وهو منهاج القرآني .. منهاج ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[2] ، ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾[3] ، ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾[4] ، بينما كان منهاج الشرك الجاهلي هو التعمية والمصادرة ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[5] .

---

(١) المصدر السابق ، العدد السادس والعشرون ، ص ٦٠٨ ، ٦٠٩

(٢) البقرة : ١١١

(٣) الأنعام : ١٤٨

(٤) الأحقاف : ٤

(٥) فصلت : ٢٦

ولأن أوروبا قد حصلت على بلادنا في الغزوة الاستعمارية الحديثة - كما يقول البديع - وقد احكمت التأليف بين القوتين الدينية، والملكية، فجعلت الأولى تنفير وداد والثانية فارس جلاد ومفتحة لما عليه الشرقيون من دين وسيرة ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل، ولا حياة للأمم إلا بما يأخذه عنه، ولا مجد لمن لم ينتم إليه ولا فضل لمن لم يتعد فيه، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعاداته...»[1]!

لأن هذه هي آفاق مقاصد الغزوة الأوروبية الحديثة، فلقد جعلت في آليتها للفكر والثقافة والتعليم والإعلام مؤسسات وكتائب سبقت وصاحبت غزوات الجيوش وسلطات الاحتلال.

فالقناصل الفرنسيون في الشام يتحدثون، في مراسلاتهم، عن مقاصد مدارس إرساليات التبشير، التي ركزت على الطائفة المارونية. فيقولون عن هذه المقاصد: «إنها بين هيمنة بلدنا على منطقة خصبة ومنتجة، وجعل البربرية العربية تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»[2].

ومن بين خريجي مدارس التبشير هذه، وفد إلى مصر عدد من المثقفين الكارهين للإسلام وحضارته، لثقافتهم الغربية ولمذهبهم الديني، ولتناقضاتهم الطائفية مع الدولة العثمانية.

---

(1) (الأستاذ) العدد الثاني والعشرون، ص ٧٠٥، ٧٠٦.

(2) من محفوظات رشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، السنوات ٨٤ - ٨٩٨.
انظر كتابنا: هل الإسلام هو الحل؟ ص ٢٢، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

فاحترفوا التبشير بالنموذج الحضاري الغربي، وأقاموا المنابر الثقافية والإعلامية التي تدفقت من نوافذها ثقافة الغرب ونظرياته ومثله وقيمه ورؤاه السياسية، محاولين إقامتها في البلاد بديلاً للحضارة الإسلامية. وكان من بين هؤلاء أصحاب مجلة «المقتطف» (١٢٩٣ - ١٣٧١هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٢م) وجريدة «المقطم» (١٣٠٦ - ١٣٧١هـ ١٨٨٩ - ١٩٥٢م) وكتابهما، من مثل يعقوب صروف (١٢٦٨ - ١٣٤٥هـ ١٨٥٢ - ١٩٢٧م) وفارس نمر (١٢٧٢ - ١٣٧٠هـ ١٨٥٦ - ١٩٥١م) وشاهين مكاريوس (١٢٦٩ - ١٣٢٨هـ ١٨٥٣ - ١٩١٠م) وأمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ ١٨٢٨ - ١٨٩٧م) وشبلي شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧م) إلخ إلخ. وأضرابهم من خريجي مدارس الإرساليات التبشيرية الذين احترفوا صناعة التبشير بالنموذج الحضاري الغربي. وكانوا بعد احتلال الإنجليز لمصر (أركان سلطان اللورد كرومر ١٨٤١ - ١٩١٧م) والسياسة الاستعمارية في مواجهة الحركة الوطنية المصرية في ذلك التاريخ.

ومع هذا التيار التغريبي كان صراع القديم[1]

فهو يصفهم بالأجراء أضداد مصر والمصريين المؤسسين للفتن والمترددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف. فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين، وتحدثهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة[2]. وهم الذين تبنت لحوم أجسامهم في خدمة

(١) (الأستاذ) العدد الرابع والعشرون، ص ٥٦٤ - ٥٦٧
(٢) المصدر السابق، العدد الثاني والعشرون، ص ٥١٠

الأجنبي، فانفعلت لها أرواحهم. فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبلة مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ! فإذا قالت جريدة وطنية: ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الحسنية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا ما لا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك عرضا، قامت جريدتهم لتقول: إن هذه دعوة إلى الهمجية وتقهقر المدنية. وإذا قال كاتب وطني: إن صلاحنا في استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قالوا: إننا غير مؤهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح. وإذا قال خطيب: إن سعينا خلف تعلّم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظّم ثروتنا، عارضوه قائلين: «لا معادن عندنا، ولا معامل في بلادنا، ولا صناع فينا، ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير»[1].

والنديم يلتمس العذر للأجنبي المستعمر، ولا يرى عذرا لهؤلاء الأجراء العملاء: «فلا نلام أجنبي نزح عن بلاده ليخدمها في الشرق، ولكن العجب من شرقي يخدم غربيا يسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والحط على ملوكه وأمرائه. فالأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال، وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده، وإغراء الغير بهم، طمعا في ذهب يموت ويتركه، فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالدا في بطون أوراقه»[2]. «ولا نلام الغربي على تداخله في شئون الشرق وأهله، فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمان، وإنما نلوم الشرقيين على تعاميهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربيين»[2]. «وليس من

(١) المصدر السابق، العدد السابع عشر، ص ٣٨٨ - ٣٩٠
(٢) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤١١

[illegible] أوروبا وتقبح أعمال [illegible] وعوائدهم، فإن لكل أمة خصائص [illegible] وعادات [illegible] أوروبا [illegible] لا يلزم من [illegible] لأخر..»[2]

«لقد [illegible] أوروبا هؤلاء الأجراء [illegible] فهم [illegible] وسكنوا [illegible]»[3] [illegible] هؤلاء الأجراء [illegible] المصريين [illegible] في فضح [illegible] كتب من مقالات [illegible] يخلو من [illegible] عدد من أعداد (الأستاذ) [illegible] في فضحهم الشعر أيضاً[4] [illegible] المصريين والشرقيين فقال

وحاشوا [illegible] أشربوا حب غيركم ... وهم منكمُ لكن يسرّهمُ الشر

مثالهمُ بعض الألى أنشأوا لكم ... جرائد يزهو في صحائفها السطر

ومن [illegible] مسرور بخدمة غيركم ... ومُثرٍ له من فضل أعدائكم وفر

[illegible] دونكم [illegible] باسم صلاحكم ... وسم الأفاعي في صنائعهم خبر[5]

* * *

(١) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤١٧، ٤١٨.
(٢) المصدر السابق، العدد الأول، ص ١٥
(٣) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤٢٠
(٤) المصدر السابق، العدد الثامن والثلاثون، ص ٩١٤
(٥) المصدر السابق، العدد الرابع والعشرون، ص ٥٦٤

والبديع لا يدع مجالا للشك في أن سهامه الوطنية والحضارية والدينية إنما هي موجهة إلى أجزاء الأجنبي وعملاء الحضارة الغربية من تيار «المقتطف» و«المقطم» على وجه التحديد.

فهو يصف كتاب «المقتطف» الذين جعلوا مجلتهم نافذة للنظريات الوضعية والمادية الغربية، بأنهم «أعداء الله وأنبيائه» و«الأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها جزالة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة منكرين وجود الإله الحق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»[1].

وهم «أعداء أنفسهم، دفعتهم يد الطرد إلى النزوح عن وطنهم إلى مصر المحروسة، فالتجئوا إلى بعض أمرائها فأكرمهم طرائهم من أرباب الأقلام أو ذوي الأفهام، بما يرد في جريدتهم التي ما فيها لا تزاحم عن جرائد أوروبا العلمية، فقربهم أمراء مصر اعتمادا على أنهم شرقيون عثمانيون، لا يخدمون إلا دولتهم، ولا يعشون إخوانهم، فما لبثوا أن كفروا بالنعمة وأنكروا المعروف وانحازوا إلى الغير، واعتبروا بعناوينهم، وظنوا أن العلم محصور في تعلم لسان لغة غير لغته، يترجم بها كتب قومها، ويغرب بها على من لم يعرفوها، موهما أن المنتظر تصنيفه والمجموع تأليفه، وهذا هو الجهل المركب الذي صيرهم أعداء لأنفسهم وهم لا يشعرون»[2].

---

(١) المصدر السابق، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٢٣، ٩٢٤.

(٢) المصدر السابق، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٧، ٩٣٩.

وعندما يجيب «المقتطف» عن سؤال قارئ مسيحي «إسكندر أفندي صعب» حول السد الذي بناه «الإسكندر» ذو القرنين والذي وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم، ويقول في جوابها: «إن ذلك من الأقوال التي لا دليل على صحتها»[1]. يتصدى النديم لهذا التشكيك في القصص القرآني، ويقول: «إن قصة السد ويأجوج ومأجوج ذكرها القرآن العزيز، وهو شائع ذائع معلوم عن المقتطف، والقرآن لم يتعرض لتعيين جهته ومساحته واسم واضعه، فلا يقال: ما قالت المقتطف من أن السائحين وصلوا الجهة التي أخبر القرآن عن وجود السد بها ولم يجدوا شيئاً، وأدينا الكتابة، وحفظ علائق المحبة يقضي بالبعد عن الطعن الديني في جريدة تنشر بين المسلمين وفي بلادهم، فالمسلمون لا يرضون أن يروا الطعن في كتابهم بلسانهم منشوراً بينهم»[1].

أما أصحاب «المقطم» فهم - برأي النديم - «الأجراء» الخونة عملاء الأجانب الذين جالوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم وخلانهم ودنا عندما داروا حول أبواب الإنكليز، يوهمونهم أنهم عندهم الخاضعون، وخدمهم المخلصون، وجواسيسهم الناقلون، وتراجمتهم المتبرعون، فوسوسوا لهم وسوسة، فأبادوا أعزاء، وخوفوهم من المصريين، وحذروهم من الركون إليهم والاعتماد عليهم، فأبعدوهم عن الخدمة، وحشدوا مكانهم الغرباء، حتى كأن ثمرة مصر ما حرمت إلا على أبنائها، ثم نشروا بلسان الجريدة الخرقاء يوهمونهم أنها مقبولة عند المصريين، وجهل الإنكليز بالعربية صدقوا هؤلاء الأبالسة، وألزم أتباعهم كثيراً من الناس بالاشتراك فيها ليعمموا نشرها في البلاد

---

(١) المصدر السابق، العدد الحادي والعشرون، ص ٤٩٧ - ٥٠

وهي عدوة المصريين، «فهي جريدة تثق غضا الاجتماع الشرقي...»[1] !..

بل إن النديم يصف «المقطم» ضمن «الجرائد الإنكليزية التي تصدر في مصر»[2] وأصحابها «عبدة ممن» تعلم في مدارس الغير على نفقة أهل الخير، فخرج مصطنعا، لا يعرف له وطنا ولا شرفا ولا قبيلة[3] يعملون أقلامهم في نعمة الشرقيين ليكتبوا بها معايب لمن أعطوهم، ويحلبوا بها مصائب من أوروهم، فما نصرك إلا رجل يدعي أنه أخوك، يناديك بلهجتك ليخرجك من بيتك ويسلمك إلى النخاسين الذين طافوا الأرض لاسترقاق الأحرار! لقد استخدمهم الغربيون بأجرة لا تزيد على ثمن بغل! وبرغيف تخضبه الزبال وخرقة يملكها الشحاذ! وهم يستدعون أوروبا بدعوى المحافظة على الأمن والخوف من الحركات الدينية[4] !!.

ولقد احتدمت المعركة بين «المقطم» وبين «الأستاذ» والنديم يكتب: «لقد خضتنا جريدة المقطم بسبب شخصي وقذف ذاتي، افتراء، فقابلناها بحلم الأدباء وصفح الكرماء وصمت الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس»[5]

---

(١) المصدر السابق: العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٣٢، وانظر كذلك صفحات ٩٢٤ - ٩٣٣.

(٢) المصدر السابق: العدد الثاني والأربعون، ص ٢٩.

(٣) المصدر السابق: العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٤.

(٤) المصدر السابق: العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٩٨، ٧٩٩، والعدد الثاني والعشرون، ص ٥٣٢.

(٥) المصدر السابق: العدد الأربعون، ص ٩٧٥، ٩٧٦.

ولما أعيتهم الحيلة ، سعوا إلى سلطات الاحتلال طالبين نفى النديم من مصر ، كى لايصنع ما سبق وصنع إبان الثورة العرابية مرة أخرى ! . . بل وكان « المقطم » أول من أشار إلى القرار الاستعمارى بنفى النديم . . « لقد بارت تجارة الأجراء ، فلم يجدوا طريقا تنفق به سلعتهم إلا السعاية . . **ولقد أرجفوا بأن محرر (الأستاذ) سيبعد عن مصر . .** » [1] . . وبعد شهر واحد من هذا الإرجاف بنفى النديم ، كان الرجل يودع قراءه ، بمقال جعل عنوانه « تحية وسلام » ، طوى به صفحة أول منبر وطنى فى الصحافة المصرية بعد هزيمة العرابيين . وفى ختام صفحات أعداد (الأستاذ) قال : « **وما خُلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر** . وعلى هذا فإنى أعلن لإخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى ... أحب لقاكم والخلود إليكمُ
وما عن قِلًى كان الرحيل وإنما ... نواع تبدت ، فالسلام عليكمُ [2] »

* * *

لكن (الأستاذ) ، التى مثلت فى ذلك التاريخ : ديوان الوطنية المصرية والجامعة الشرقية والحضارة الإسلامية ، كانت الأستاذ الذى تعلم على يديه مصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٢٦هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨م) فكان « الحزب الوطنى » ، حزب الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية . . ذلك الذى خرجت من عباءته القوى التى

(١) المصدر السابق . العدد السابع والثلاثون . ص ٨٨٩ .
(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٣٢ .

واصلت الجهاد الوطني ، والرباط على ثغور الخصوصية الحضارية . . فتوالت ، ولاتزال تتوالى صفحات التدافع الحضاري بين فكر عبد الله النديم - أبرز المعبرين عن أحشاء مصر ، وهوية أبناء الشرق - وبين الذين « استمالتهم أوروبا ، فانتموا إليها ، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا ، بل وإن دانوا بديننا» . . كما قال النديم . . عليه رحمة الله .

الفهـرس

كلمات ٣

تعريف فى سطور ٥

تمهيد عن الموضوع .. والمنهاج ٨

الانتماء الثقافى .. والتقدم ١٢

الجامعة الشرقية : انتماء حضارى فى مواجهة الغرب ١٩

مقومات الانتماء .. والنهوض ٣٠

الآخر .. السياسى .. والحضارى .. والثقافى ٦٣

الأجراء .. المبشرون بالنموذج الغربى ٦٩

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي . لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري .
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا .
- أ . فهمي هويدي
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

نهضة مصر